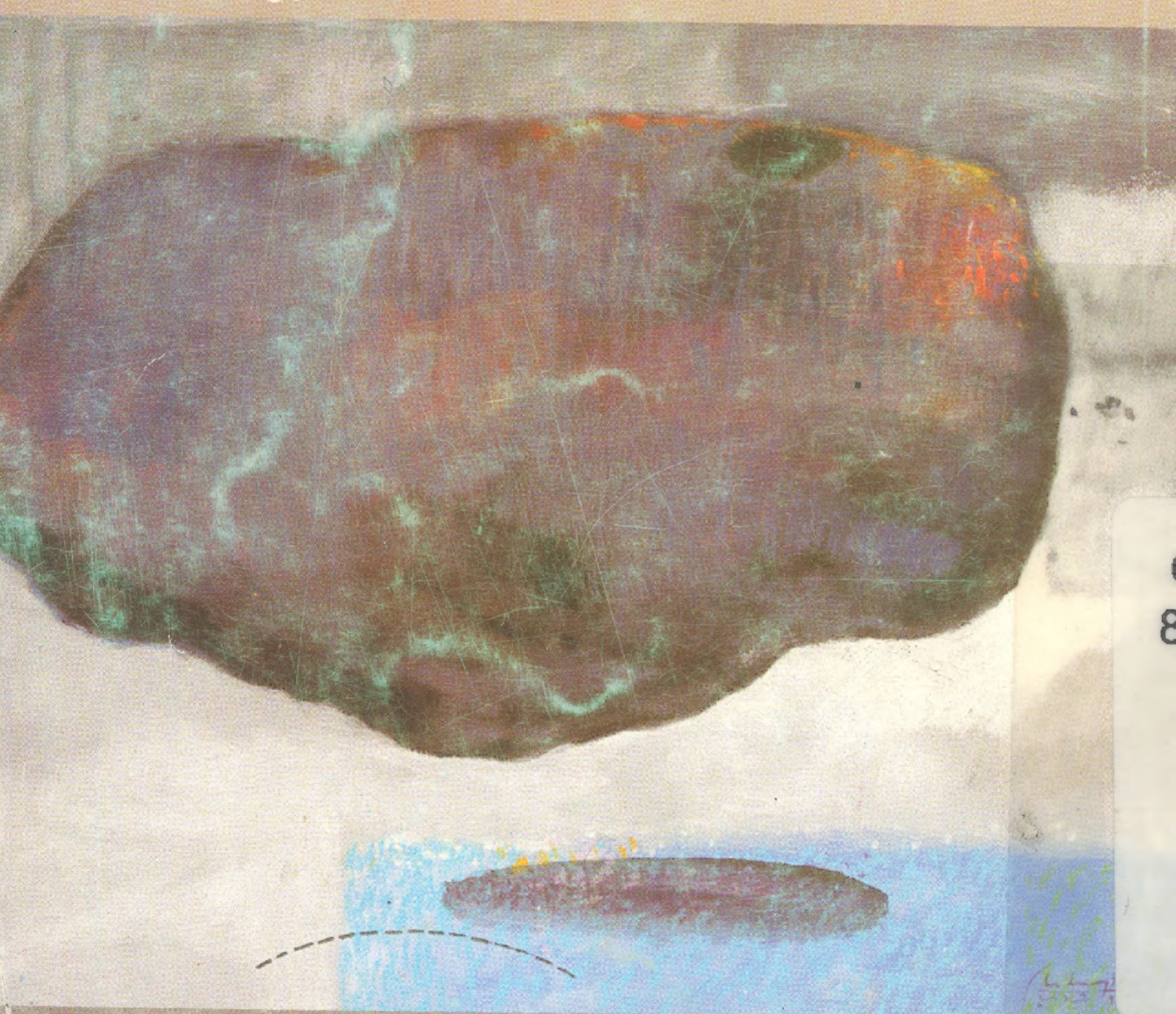


ليلة في سجن المالكى

عبد الستار حتيّة

• رواية •



اللوحة من أعمال الفنان شادى الشوقاى

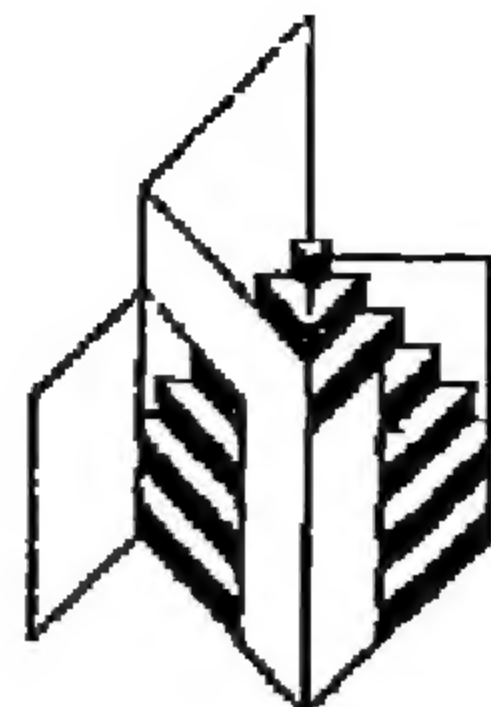
الهيئة العامة لقصور الثقافة

اهداءات ٢٠٠٣

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة

الجوائز ١



الهيئة العامة لقصور الثقافة

ليلة في سجن المالكى

عبد الستار حنينة

* رواية *

رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى الرزاز

رئيس التحرير	محمد السيد عيد
مدير التحرير	زينب العيسال
إشراف فني	عبد الرحمن نور الدين

أمين عام النشر
محمد كشيك

إهداء:

إلى حبس الوحيد
.. إلى الأبد!

إشارة

الأشعار الواردة في هذه القصص
للشاعر الشعبي المرحوم عوض عبد
القادر المالكى ، وأحداث القصص لا
علاقة لها بسيرته الذاتية.

(1)

يموج العقل ، يدور ويدور ، دون توقف، بلا رحمة.. إلى الأبد.
لا يمسك مصيره بيده... لا يحصل على ما يريد ، ويهوى،
ويحب..

لا شيء سوى شاحنة، يدفع هو وأخوته مؤخرتها، كل صباح،
لترتج، وتزأر ، قبل أن يصفق والده بابها، مخلفا لهم زيتها
المحروق، ورائحة دخانها.. أمام البيت!

آخر الليل ، تعود قرقعة محرك الشاحنة، يرتفع صوتها، ثم
تنطفىء أنوارها، وتهمد تحت الطل.

كانت الشاحنة، إذا أرادت أن تنام جوار المنزل، تدور حوله
دورة، يعلو صوتها، وتزفر وتئن، ولا تسكت إلا وقد استيقظ
الأطفال الستة الصغار، والثلاثة الأكبر، والمالكي.. حينذاك تنفتح
نوافذ المنزل. تشعل أمهم مصباحا آخر، وتتجه به للمطبخ.
يلتف جميع الأولاد حول الشاحنة، وتستطيل وتنكمش
أجسادهم النحيلة أمام أضوائها الكاشفة!

وترى أكياس الطماطم والبصل والأرز تتلقفها الأيدي الصغيرة،
وتختفى داخل البيت.

وهذا، مع ذلك، نادرا ما يحدث، ربما مرة في الأسبوع، أما الأيام الأخرى، فتجرى بطريقة مرعبة.

يصبح الأب، نفس الأب، شاذا، صموتا، غريب الأطوار، يستثار لأتفه الأسباب، لدرجة أن الذبابة، التافهة، التي تحوم أمام وجهه، يتعارك معها، يسبها.. ويسب الزوجة والأطفال، وقد يحطم كل ما تطاله يده.. ويكون ذلك، غالبا، عندما يعود ملطخا بالزيوت والشحوم السوداء، من رأسه لقدميه.. مفلسا!

في أول الليل، في مثل هذه الأحوال، يسمع فحيح الشاحنة قادمة، كأنها تتلصص، ولا تريد أن توقظ أحدا.. يشعر الأولاد بثقلها وهي تحاذي السور البحرى، وبعد صوت انغلاق الباب، وله صفقة مميزة، تأتي الخطوات.. خطوات والدهم، يلج المنزل، فيحبسون أنفاسهم تحت الغطاء الأحمر البالى.. ومثل كل ليلة، يبدأ صوت الأم، خفيضا.. هامسا:

- «نحط عشا؟» -

- «لا..» -

- «نسخن لك ميه؟» -

- «لا..» -

ثم يضيف بصوته القوي الجاف:

- العويل تعشوا؟» -

- «تعشوا ..» -

- «.. وايش تعشوا ..؟» -

«تعشوا ، وخلص ..» -

ولا يقتنع ، يزفر..

- «العويل باتوا من غير عشا..

ودين ربى مامنك بركة.. سويتى الرز كله، خلصتية فى يوم

واحد.. يارب ريحنى.. خذنى، يا مالك الملك» -

يغرق، بعدها، البيت كله فى صمت .. سكون بارد، وليل طويل،

تسقط فيه الدموع الحارة تحت الأغطية!

فى البكور ، تدفع الأيدى الصغيرة مؤخرة الشاحنة، بلا ضجيج،

كأنهم يدفعون تابوتا للموتى.. شعور جنائزى!

من معه نقود، فى هذه الصحراء ليؤجر شاحنة - ؟ يقف الأب

وسط السوق يوما كاملا، دون عمل.

ويتصافد أحيانا أن يتعاقد معه أحد الموسرين لنقل أغنامه إلى

الشرق.. بعيدا عن الجفاف.

ثمة مشاعر جديدة تتراقق مع كل عمل، يطلقها الأب، فيصبح

إنسانا. لينا عطوفا يشتري لأولاده الفلافل الساخنة والزبادى

والحلى.

لكن هذا لا يتكرر كثيرا ، ثلاث - أربع مرات فى الفصل الكامل.

قرب نهاية الربيع، تخطى المالكي عامه السابع عشر، وبدأ يطيل وقفته فوق الراية التي نما عليها الأقحوان الأصفر.

.. نما كذلك، داخل صدره، شعور ممض بالوحدة. وإلى جانبه، ترعرعت نبتة جديدة، ضربت بجذورها حول قلبه، وتشابكت، وكبرت، نبتة اسمها: نؤارة!

هنا تقرر الفرار.. إلى ليبيا، اتفق، أولاً، مع صاحبيه، سويد وشويقي، ثم فاتح أمه، قبل موعد الرحيل بيوم واحد، وهي بدورها، انتظرت حتى عادت الشاحنة، آخر الليل، تجر ذيل الخيمة.. ومع ذلك أخبرت زوجها.. (بو المالكي).

هذا الرجل الأشيب، الملطخ بالزفت، كان إذا ما تكالبت عليه المصائب، يرفع رأسه، لتطوف عيناه على مدى السهوب الواسعة، يغيب في الزمن الغابر.. ثغاء النعاج، يسمعه، ويسمع صهيل الخيول وأصوات الدلاء تقرقع تصب الماء للإبل!

وفي البعيد، تمتد مساحات شاسعة تغطيها سنابل الشعير الممثلة فإذا أعادت زوجته السؤال، صباح اليوم، «ها.. ايش رايك؟» - أدرك أنه في قاع بئر من الضياع، يفتح عينيه.. محول، جفاف، تراب تذروه الرياح على مرمى البصر، وهنا شاحنة معطوبة، زيت محروق ودخان أسود!

- «.. باهى..» - وتتصلب عضلات وجهه، خطوط شهباء، كأعواد

القذاح الجافة، يصمت على أنه موافق.
وفيما تتركه.. تعود صورة النجع في رأسه، الدجاج ينقب، في
فريق منتظم، في التراب، الديك الأحمر منقوش الريش والعرف،
يتزعمه، فنجان شاي الضحوية تحت ظل الرواق.. درس الشعير،
رائحة السنابل، ملمسها ووخزها الحبيب.
واليوم.. زمان شين!

(٢)

.. يا لهذه الصحراء الشاسعة الواسعة المترامية الأطراف، أى
قبرات تعشش فيها، تضع بيضها الصغير، بحجم عقلة الأصبع!
ويا لها من حوافر.. حوافر الخيول والحمير، ترسم المسالك
والدروب، كم جمل عبرها فى قافلة، وهرس، بخفه، الحصى
والشوك. قوافل التمر والزيتون والشعير.. تضرب بأقدامها رقعة
الصحراء، نون كلل.

حينما يفتح الشوق فمه، ويمد أسنانه ليأكل من قلب بو المالكى
قطعة قطعة، يسرع لأقرب دكان، ويحمل علبة تبغ، ويتجه لجاره،
اشجيليف، يجلسان جوار السور ويدخنان، ويسافران إلى زمان
بعيدا

- «ايش ريت .. هالصحرا..

الرجالة .. أولاد على .. كم عيلة؟

.. ألفين .. والمتفرعين منهم آلاف .. وين توا؟ -

يسأل اشجيليف - مشعلا لفافته .. يواصل

- «من فوق السلوم .. من فوق الحجاج (١) .. لعند آخر الصحراء ،

قبلى .. سلك طويل .. من اللى زرعه .. الطليان .. الانجليز؟ - ويحديق فى

الفضاء، أمامه، وكأن بو المالكى لا يسمعه، يضيف :

- «.. فى الحرب الأولى، أيام عمر المختار، كهربوا السلك، وحرثوا الأرض.. زرعوها ألغام.. لكن عديت.. أنا واللى معى، عدينا.. قالوا الحقوا سيدى عمر يريد رجال وسلاح..

وأخرى خبز.. ونحن عرب، هزينا بطون الخيل، ومسكنا فى ظهرها، وطارت بنا، من فوق السلك واللغم..» -

وبعد صمت طويل، أشعل بو المالكى لفافة، وأمسك بطرف الخيط من اشجيليف- «.. الطليان ساقوا العرب من السلوم، من برانى، لعند العامرية، والبحيرة.. ما يريدونا، لكن احنا ردينا.. سبنا الصبايا يطبخن الحيط فى الميه للعويل عشان يرقدوا.. وغربنا، تلحقوا سيدى عمر.. فى الليل.. بوى.. جدى، خالى، وعرب واجد(٢)، ما لهم حد.. فى الليل، بنادق أم روحين، وسكاكين..

كلها تجرى مغرب، اللى نسى صدريته(٣) وشنته(٤) معلقة على جابر(٥) البيت.. ما هناك وقت عشان تلبس.. لكن سيدى عمر قيدوه بالحديد.. سلسلة حديد فى يديه وقدميه. صقر مجروح تحت مخالب بومه، حتى إن طار تلحقه وتجيبه.. ساقوه للمشنقة، والصبايا يزغردن، طاحت النظارة.. بعدها.. كله بكا..» -

قال اشجيليف- «.. وبعدها، فى حرب الجرمان والنجليز، فى إعلمين(٦) مشيت للمستتر قاجز.. كان قاعد فى سروال نص.. قلت له..

انتو خذيتوا غنمى، وناقتى، وما عندى منين ناكل.. وايش كان رده.. الكلب؟! قال، خلاص بدون(٧).. بدون يمشى لاسكندرية.. مفيش بدون.. نو(٨) بدون.. نو كامل(٩) نو شيب(١٠). وبعدها اشتغلت عنده.. فى الكامبو(١١).. خدام فى ميس(١٢) الضباط، ومنهم تعلمت تدخين السجاير..» وألقى اشجيليف عقب لفافته بعيدا وكان صوته، قبل أن يغرق فى الصمت، خافتا، ومبتورا، كأنه قادم من بعيد.

فى مثل هذه الجلسات ، يستعيد بو المالكى شتات نفسه، ويبدأ، مجددا، وبعد ما يستمع لإشجيليف، جاره، فى التفكير بمصير الشاحنة، هل يبيعهها؟ ثم هل يسافر ولده، المالكى..؟ وكم بقى من النقود.. ما أسعار الطماطم والبطاطس والأرز..؟ لماذا رُزق كل هؤلاء الأطفال..؟ وقبل أن يغيب، بعيدا عن بيت جاره، لا ينسى أن يصيح - «بكره، فى العصر يا شجالوف، نقعدوا ونحكوا..» -

(٣)

أما النساء، جارات أم المالكى، وجارات سوارم - زوجة اشجيليف، فعندما يتذكرن تلك الأيام، ويستعدن الأحداث، لا تخرج عن ذات القصص التى رددنها عشرات المرات.. فى سهراتهن، فى منزل بو المالكى، قبل أن يعود بشأحته، من العمل..

وكانت النسوة، يصورن سحنات (النجليز) و (الچرمان).. يغطيها رمل الصحراء.. مذعورة وشرسة، .. تسمع، مثلاً، أن المتحاربين، (الفرنچ) كانت لهم أسنان تمزق اللحم الأدمى الحى، دون رحمة. وتتخيل العجائز، وهن يقصصن، وقتما كن يحملن أطفالهن، شيطانات، يقطعن مئات الأميال، متعبات، منهوكات القوى، ينهبن الصحراء - «أى والله يا وليدى.. مر علينا ترك وعبيد سود، وهنود، من فوق هالتراب..» - وتشير العجوز إلى الأرض التى تجلس عليها.

- «وبقىنا، نحن، على أرضنا..»

تتم كلامها، وتصمت، وترحل وحدها، بعيداً، فى الزمن الغابر. كان المركز التجارى، قبل الحرب، فى مدينة برانى.. وترى مع مطلع كل صباح الآلاف من رؤوس الأغنام، تتزاحم وتتغوى، كأنها

ترفض أن تباع أو تشتري، وهي تثير الغبار حولها!
أما قوافل الإبل، وقد جاءت لتوها من الدروب الجنوبية، دروب
الواحات والنجوم! فناخت، واستراحت من أحمال التمر والزيتون،
والشعير، وحر الشمس، والآفاق اللامتناهية.

وترى من فوق الخليج الصاخب واللهجات المتفرقة لتجار المغرب
والمشرق.. ترى خلال الغبار العالق في ضباب الصباح، رؤوس
الخيول، طويلة، منسابة مرفوعة في شمم!

لكن الحال تبدل.. خلفت الحرب، مع الجرحى واليتامي والتكالي،
شارعا مرصوفا، يربط بين الإسكندرية ومدينة مرسى مطروح..
حتى السلوم. كما خلقت حقول الأغنام الأرضية المضادة للأفراد
والأغنام والحمير والدجاج.. تركتها إما ملاصقة لجذور النباتات
البرية، أو تحت الثرى، حيث كان أولاد على يزرعون الشعير على
أمطار الشتاء.

وأقام الجنود.. جنود بريطانيا، قبل رحيلهم، محطة للسكة
الحديدية بمدينة مرسى مطروح.. فتحوّلت، بعدهم، إلى مركز
تجاري، وبقيت مدينة برانى، وحدها، تمر عبرها قوافل الإبل ولا
تتوقف!

إبان عقد الستينيات، جرت أكبر عملية جراحية لتسكين أبناء
القبائل، فأقامت الدولة المساكن والمدارس وأعمدة البرق والهاتف

، وأنشأت بجانب محطة السكة الحديدية، بمرسى مطروح، مظلة خرسانية طويلة، لينتظر تحتها المسافرون القطار ويودعوا، كذلك، ذويهم!

لأول مرة، تطوى القبائل خيام الشعر والخيش، وتستقر في بيوت من الحجارة والطين، لكن ما العمل- «البيوت استقرت لكن نحن .. مازلنا»- قالت عجوز كانت سهرانة في بيت بو المالكى...- «ايش ورانا غير الرحيل ورا المزن.. ورا العشب.. لكن هنا ... برره»-

وتضيف أخرى- «لوين نرحلوا، توا، هناك حدود.. سلوك وعساكر بينادقهم .. وبعدها الحال تبدل، في البردى، والجبل، الخضر.. ما عاد يهم حد، لا العشب ولا الغنم ولا النياق.. توا، يا خيتى، هناك نطف، وايش هو؟ نقولك، حاجة غالية .. لها ريحة، وغريب، تبيعه وتشرى من وراه عربية بيجو..

من النجليز.. وبلادهم، أخرى، بعيدة، ورا البحر الأزرق...»-
والعائدون من زيارات أولاد عمومتهم ، في برقة، من الرجال والنساء، يؤكدون، ورا السلك، في ليبيا، خير ماله حد.. خير لا يوصف- «.. تحسبهم يحرثوا.. بررره! ولا حد يرعى ضأن، ولا ساقى يروى ناقه.. هناك خدم، خدم من كل ملة.. سنوادين ومناوية»-

وتتدخل عجوز عادت لتوها من زيارة ابنة عمها فى بنغازى، وهى
تغمز أم المالكى :

- «تبدلت الدنيا، وبومجاور ، صاحب بيت(١٣) عزية، يملأ فيه من
البير بالبيك أب، ويسلم على صاحب بيتك، بو المالكى، ويقولك،
بلغيه.. إن كان الحال بالهون(١٤). والحال من عند الله، يعنى يا
خيتى، ما هناك حشم(١٥) إن كان باع معزاته، وما لقي شغلة،
وهو ما هو غريب عليك، ابن خيك، بلغى بو المالكى يمشى له،
أوبيعث وليدك الكبير، المالكى، وهويلقى له شغلة.. هذا الحال،
والحال من عند الله، وما هناك حشم»-

.. وبدأت أرجل أهالى السلوم، والمقيمين معهم، الذين جاعوا
من المدن الأخرى، بدأت الأرجل الحافية تجرى تحت الظلام،
تصعد الهضبة وتهبط منها.. من خلال الدروب، والوديان الضيقة..
عبر الأسلاك الشائكة وحقول الألغام.

.. التهريب، هذه الكلمة الكبيرة، التى لا تعنى ، هنا ، سوى عبور
الحدود، من مدينة إمساعد الليبية، إلى مدينة السلوم المصرية وكل
مهرب، فوق كتفه، أو فوق ظهر حماره، جوال سكر، شاي أو
نعال.. أقمشة.. والحمير، ربما حفظت الطريق الصاعد الهابط،
وربما ، كذلك، عرفت كيف تخطو بين رؤوس الألغام دون أن
تخطى، وتطأها. ترقى الهضبة وخلف ذيولها تتناثر بيوت السلوم

المظلمة! وأمام عيونها اللوزية، المتقرحة، تتراعى مشاعل مدينة
إمساعد، وراء خطوط الأسلاك الشائكة، وحقول الألغام!
الحمير، القصيرة النشيطة الحركة، لم تتوقف، حتى بعد ما
تشددت الحراسات، وأصبح جنود الحدود يطلقون النار بكثافة،
وبهدف القتل.. فإن الحمير قامت بالمهمة، بالنيابة عن أصحابها
، الذين يرسلونها، بالنقود ، ورسالة بالطلبات، من مندوب تجار
إمساعد، الذى ينتظرها على الجانب الآخر من الحدود..
جلس أبو المالكى ذات مساء بجوار صاحبه. إشجيليف.. وكان، هذا
الأخير ، غاضبا - «قالوا سبب غلو السجائر صلحنا مع اليهود،
كيف، بالله، يكون هذا، يا أبو المالكى..» -
صمت أبو المالكى وهو يشعل لفافتى التبغ.. ثم بعدما ظن أن
إشجيليف قد ارتوى من الدخان.. وهدأ، بدأ مهمته.
- «.. وإنت ، يا شجلوف، جارى، ولا بد ننصحك، توا ، لك كم سنة
من غير شغل.. وما تقول لى إنك كبير، وما تقدر.. أنت، توا،
قاعد تحكى عن زمان قديم، نجليز وجرمان، وطليان.. لكن الزمان
تغير واليوم نا ،
نقولك، هناك أصحاب لى مغربين، راح معهم، ومن السلوم، تقدر
تقعد فى مطبخ، تسوى شاهى للهراية.. وتكسب قرشين.. عويك
واجد، ويريدوا مصروف» - لكن تقعد وتقول أولاد على سوا

كذا وأصلهم كذا، والصحرا فيها كذا، وما فيها كذا.. هذا ما
يوكل العويل يا شجلوف يا خوى..» -

اضطرب إشجيليف، وارتعصت أصابعه الطويلة.. اهتزت لفافة
القبغ.. وتكور على نفسه، ولم يجب.

وبعد ذلك بفترة طويلة، جاء صوته، متقطعا، خائفا، وكأنه كان
يحتبس البكاء..

- «.. ما عاد هناك تهريب، واللى مشوا، ردوا، أو قتلتم الحكومة،
أو حبستهم.. ما عاد هناك شىء، يابو المالكى، ما عاد هناك!» -

واستعاد بعضا من شجاعته، وأضاف

- «.. وحتى اللى مشوا عشان يزوروا هلم فى بنغازى وطبرق،
قتلوهم.. واندفنوا فى السلوم»

وبعد هنيهة، وكأنه تذكر ذلك فجأة :

- «فوزية بنت جمعة، تعرفها؟ بنت جمعة الحبونى، كانت راكبة
جحشة، والعطية هذى كانت جفالة.. طلعت عن طابور الحمير،
وداست على لغم.. انت سمعت عنها.. سمعت.. كيف لموا لحمها
فى الليل.. قالوا، لكن نا عارف، ما لموا منها فتفوته، قالوا
دفنوها، لكن ما صار، ما لقوا منها شىء.. لاهى، ولا الجحشة،
طيرتهم الألفام..» -

الأحاديث التى تنور بين جدران غرف الضيافة (المربوعة) عن

التنقل بين السلوم وإمساعد، هي أحاديث عن أشلاء العابرين..
الجرحي والمشوهين، وعمن كتبت لهم السلامة.. تدور فناجين
الشاي. تسمع الرشفة القصيرة الحادة من الفنجان و-«الله
والنبي تنظرا!»- في دهشة..

جوع وجذب..

محول، وانتظار.. ترى في العيون الصحراوية الواسعة والتي لا
تطرف، الصمت.. صمت الحجر الصوان، وهي مفتوحة على
المدى البعيد.. البعيد..!

مدن يلفها الانتظار، يزورها القطار القديم الكئيب المعفر، ينبع
عصر كل يوم، مخترقا حقول الألفام، قبل أن يحط في محطة
مرسى مطروح،

-«خررراب...خررراب...»- فيلقى بالقادمين المنهكين، وصحف
الأمس، وأقفاص الطماطم الخربة.. حبال الليف، والمحاريث
و«المنياوية»- أبناء الصعيد- في طريقهم إلى الحلم، الأمل إلى
أضواء إمساعد وراء الحدود!

(٢)

- «من حبك، ما بطل نوحى.

يا طب أمراضى وجروحي،

وتعزى بالحيل على

ودى نحكيك يا زينة،

درنا راي وفيه مشينا (١٦)

نا ومعاي رفاقة لى.. (١٧)

هكذا، بدأ المالكى، فيما هو يعتصر جسده المنهك ، بين جدران

حجرة الحبس الباردة، ينسج خيوط كلمات بدوية موزونة، يحكى

فيها المشوار.. من باب بيت أبيه بو المالكى، حتى عتبة باب

السجن.. وما بينهما طريق طويلة، تبدأ من محطة السكة الحديدية،

وتغرب.. تجتاز الحدود.. وتعود إلى هنا، حيث الجدران الأربعة

العريانة، ورائحة البول، والكوة الحديدية المعتمدة!

الرحلة، الحس المرهف، والروح المتحرقة، ما يلاقيه الرجل المنبوذ

المبعد.. خاوى الوفاض، عثرات تليها عثرات.. مهان، حقير الشأن،

بلا عمل.. لا يجد من يسمع شكواه..!

هكذا استغرق المالكى بين الجدران الأربعة، يوم يمر، ويومان.

الطعام طين تحويه صفيحة صدئة. الماء ماء صرف عفن فى كوز..

وشهر يعقبه شهر.

- «من حبك ما بطل نوحى» -

نار الوجد ، الشوق، شعور الحاجة إليها عبر الغبار المتطاير من
تحت شراشف المكنسة، وهى تعمل بهمة ونشاط أنثويين.. أمام
باحة منزلها ، بجوار الربوة العالية..

نوارة.. ابتسمت ، توقفت عن هز ذراعها بالمكنسة القصيرة،
واستدارت، وابتسمت، فانعكس بريق الضحى على أسنانها
المجلوة. سحبت أهداب عينيها الكحيلتين عندما استدار هو، فى
نفس اللحظة، من قمة الراية، نحوها.

حينما فتحت نافذة الحجرة، التى ترقد فيها مع أخوتها، لمحته
يؤرجح طوله الفارع تحت خيوط شمس البكور الذهبية، فى طريقه
الصاعد، المعتاد، حيث يشرف من عل على المدى الفسيح للأفاق
الواسعة فوق الهضاب البعيدة.. الهضاب الضبابية الملتحمة مع حد
السما.

واليوم، من هناك، وقبل أن ينحدر متجها لمنزل والده، بو المالكى،
التقت وإليها هى بالذات، فعادت العمل، بهمة واضطراب..
(كان ذلك فى الطريقة التى يتطاير بها الغبار تحت ضربات
المكنسة)!

كل صباح، وزقزقة الزرور تعزف تحت الفضاء الرحيب، يفتح

النافذة، نافذة بيته، فيجدها تترقبه خلسة، من خلف نافذتها.
وحالما تخرج، تنطبع أقدامها الحافية على الثرى الرطب أمام بيتها.
وتتلفت وتتأكش أخاها الصغير(الذي يبدو دائما بدون سروال).
و(تطرطش) الماء على وجه أختها، الطفلة الناعسة، وتدور حول
نفسها، كأنها تؤدي رقصة ما.. فراشة، فراشة ملونة! حالما تختفي
داخل البيت، ويبقى كوز الماء الملقى جوار السور، والثوب المنشور
على الحبل، يهمسان له: أن انتظرا هكذا إذن صارت الحال..
كبرت الفراشة وطارت، وكأنها ما خطت معه يوما لخص الشيخ ،
باكية حافية القدمين ، ملطخة بفحم الكتابة الأسود..

(5)

السجن. المالكى فى الليل. غرفة حبس انفرادى . البرد يضرب،
والرياح تسوط. يتناهى صوت المطر. هنيهة، وصمت.. يخطو الحذاء
الثقيل عبر امتداد ممر عنبر السجن الخطوات تتوقف. ينكمش
الجسد المرتعص. خطوة، خطوتان.. مرت الليلة دون شتائم!

والشتائم لها أنواع - «إنت ، يا بدوى، يا ابن الشرموطة، خذ أقوك
يا جربوع يا ابن الكلب.. انتوى يا وله صحيح بتهربوا الحشيش من
ليبيا ، طيب.. خلى أخوك يجيب حطة معاه، وهو جاي فى الزيارة..
روح كده وانت جربان، دانا حكرمك آخر كرم.. بس أعر الطاسة!»
أو تبدأ بشكل مختلف - «.. خذ ياله، احكى لى يا مسجون، عديت
السلك ازاي، وبعدين فيه ألغام، انتوى يا وله الى اسمكو أولاد على..
على كده القذافى قرييكم، انتو جواسيس يا وله.. بس انا ممكن
أريك.. عارف ممكن أريك ازاي..

أعرفك؟ هه؟ عايز تعرف؟ طظ فيك وفى أبو على الكبير بتاعكوا..
عارف البيادة دى.. أحطها على راسك وعلى راس أكبر واحد فى
عيلتك، غور ، جاتك داهية، قال أولاد على قال..» -

أو تتخذ طريقة أخرى، غالبا ما تكون مقدمة ليوم عمل فى ردهات
السجن :

- « .. بقى انتو عاملين عصابات فى الجبل .. ومعاكو سلاح .. جبتوه منين يا ولاد الكلب .. ياللا بره، بره، كله بره ع الشغل، أنا حشويكو تحت الشمس يا جرابيع .. » -

أما شتائم ضباط السجن، فكانت من نوع آخر، ربما أكثر رقيا :
- « .. عبد الناصر لمكوا من الصحرا، قال توطين .. ما يعرفش انكم غنم، تحبو تسرحوا وتسرحوا .. أنا اعلمكوا ازاي تتوطنوا عندنا ، هنا .. » - ويشير إلى غرف الحبس!

والضباط الذين لا يفهمون الوضع بالضبط تتخذ شتائمهم طابعا آخر ..

- « .. بتقول أولاد عمك ليبين، وكنت رايح لهم زيارة .. فهمنى بقى، أنت بروح أمك، مصرى ولا ليبى .. ما انا لازم افهم .. بقواك إيه .. ما تستعبطش على أمى .. انت وضعت إيه بالضبط .. يا سماعين، خده، فتح له مخه، وهات لى ابن العرص ده تانى .. » -

وكان ضابط آخر برتبة أكبر يكتفى بكلمة واحدة - « اتقووا .. » - على الوجوه البدوية المذعورة. وكان لا يمر على عنابر السجن إلا مرة واحدة فى الشهر.

أما المساجين الذين يقضون مدة عقوبة التسلل - ستة أشهر - فكانت الكلمات تتناقل فيما بينهم، فى همس وخوف :

- « بيش امسكت (١٨) ؟! - » -

- «جوال سكر.. فى السلوم، وانت؟» -

- «مقطع قماش، وخنوا حمارى..

وكان معاى كيلو شاهى، ومات واحد سمالوسى (١٩) كان معانا ..
ضربوا عليه رصاص :: وامسكونا.. منين اللى معاك؟» -

- «قطاعانى» (٢٠) ومعانا ثلاثة (٢١) معابدة ممنوع عليهم الزيارات
والخروج، وهناك واحد آخر.. (حبونى) (٢٢) ممسوك قبلى، راعى
إبل، خذوها منه وداروا له قضية تسلل وقاعد بيكى من يوم ماجا..
من عشرة أيام..» -

ويمضى النهار، يجر خلقه نهارا آخر، الجسد يزداد نحولا، وتزداد
النقر المحفورة على جدار السجن نقرا جديدة!

(٦)

هناك نوع من الحب، يمتد بين قلبين بعيدين مثل خيط من الضوء،
حزم المالكي حاجياته بعمامة قديمة مهترئة، وبكر مع الطيور ناحية
محطة القطار.. ولا يدري كيف توقف، والتفت وراءه، ورفع يده،
ولوح..

نواره، تحت ضباب الصباح، تشرف من فوق الرابية.. رابيته التي
طالما اعتلى رأسها يستشرف الآفاق!
نزلت، قبل أن يستدير ويعاود الخطو. جرت إليه، كان ثوبها
المفضض يطير مع الريح، وحزامها الأصفر يعكس الأشعة الذهبية
الأولى لشمس النهار الوليد..
- «وين ماشى، خليك..» -

جاء صوتها على بعد خطوتين منه، لفحته الكلمات، وأنفاسها الحارة،
فارتعشت يده منه، وهو يمدّها أمامه، إليها..

هب نسيم الصباح البارد، فمس خده، وهز نؤاية شعره، وأرعده
إحساس غريب اكتنفه فجأة، غامت عيناه. ضغطت اليد الدافئة -
يدها - يده، والتف ذراعان حنونان حول خصره، انتفضت، قفزت
على بعد خطوتين وقفت أمامه من جديد.

وجهها منكس، تحديق في أطراف أصابع قدميها الحافيتين.. ربما

سقطت دمعة، فقد كان الطل يلفهما، والندى يبيل الشعر والحدود
والأيدي..

- «أى متى ترد؟» -

- «ترجيني (٢٣) ..؟» -

- «نين نموت (٢٤) ..» - هذه إجابتها!

.. ثمة خيالات بعيدة تتحرك، أشعة الشمس أضحت أكثر قوة،
نفضت الغبش المائي العالق على جفون الليل الثقيلة، ونشرت
الصحو والدفء تحت سماء صيف صافية.

صو صوت قبرة، وطارت تصفق بجناحيها مرحة، ثم حطت فى مكان
قصى.. فهى المرة الأولى التى التقى فيها المالكى مع نواره..
جارتة.. بنت إشجيليف. كانت البيوت بعيدة. تنحدر من جانب الربوة
العالية، وتغط فى نوم متصل من هنا، تبعد محط السكة الحديدية
كيلو مترين. قفلت نواره عائدة.. تعثرت.. توقفت، انتفض شعرها..
وكان مثل عرف مهرة.. وتلفتت وراءها.. عصرت يديها المبلتين
بالدموع بثوبها.. واختفت.. لم يحدد المالكى، هل توجهت صوب
الرابية، أم ناحية بيت أبيها.. اختفت فجأة، كأنها طارت.. فراشة
توارت فوق امتداد الأرض المنبسطة غير المحروثة، وهى تصفق
بجناحيها الثقيلين من الحزن!

ارتفعت الشمس قليلا، ومالت. سكبت خطوطا طويلة تماوجت فى

السراب، مثل نهر بعيد شفاف.. وتبدت أفاق الصحراء.. قاتمة، فى أول الأمر، ثم ، عندما ارتفعت الشمس أكثر، ظهرت تقاطيع الهضاب والروابي فى الجنوب، وأضفت عليها خطوط الظل السوداء الحادة، ملامح شوها، مخيفة، ترتجف تحت القیظ.

«.. كان يقعد هنا ..» - جلست نواره فوق قاعدة حجرية، أعلى الرابية، وتلفتت حولها، كأنها تخشى أحدا.

كانت البيوت المتناثرة خلف ظهرها، فى جانب المنحدر، غارقة فى الصمت، وتحت السماء الزرقاء الصافية، تحركت ریح خفيفة، فأزاحت غيمة بيضاء صغيرة، وساقتها إلى الجنوب فى يسر، بلا توقف.

- «يا نواره..» - صاح أخوها.

كان قد ارتقى نصف الرابية، ففزعا

- «أمك تدور عليك (٢٥)» -

حين تمشى سوارم، أمها، بين الغرف وخارج الحوش، تبدو ككيس طحين ضخّم مكسو بالقماش الرخيص.

بيد أنها تمتلك، مع ذلك، نظرة شريرة، حينما تلتمع فوق خديها المنتفخين، ينكمش أطفالها فى زوايا البيت.. وربما لهذا السبب تتساعل النسوة، وقت السمر، وأمامها بلا مواربة - «نواره، بنت سوارم؟ لا .. لا ، نواره بنت بوها، اشجیلیف!» -

.. وشجالوف، كما يحلو لسوارم مناداته حينما تكون رائقة المزاج،
رجل طيب، وسيم. له وجه أحمر، وعينان لونهما أخضر باهت، مثل
حبتي زيتون.. وعلى جبينه العريض خصلات شعر سوداء ملتوية
تبرز من تحت (الصمادة) البيضاء التي يعتنى بها، ولا يخلعها إلا
ساعة النوم، أو ساعة الغضب.

لم يكن يعيب اشجيليف غير شيء واحد: شرايته المفرطة للتدخين.

- «وين رحتي؟ فيش تديرى فوق العلو؟ تشرفى على الرجالة؟

ايش اندير فيك توا؟ نقتلك؟

نقطعك، ندفنك؟ هه..؟» -

كان اشجيليف يدخن خلف البيت، تحت النافذة، ومنها انسابت

معزوفة زوجته، وهى توبخ نواره.

تبدل صوتها الآن، أصبح أكثر رقة، وكأن بكاء نواره السبب..

- «يا نويرة، من لى غيرك؟» - قالت سوارم.. وصدر حفيف، ربما

عانقت ابنتها.

- «يالله يا بنيتى، سوى غدا بوك.. ونا ماشية عند بيت بو المالكى،

يمكن تلقى عندهم بصلات، وحبنتين طماطم عشان التقلية..» -

عادت بعد ربع ساعة تقريبا، منهكة من الحر، وجسدها البدين ينز

عرقا ويفوح بالقرنفل والحناء وزيت الزيتون.

فى جانب طرحتها السوداء، التى تغطى رأسها وتنسدل على

كتفيتها العريضين، صرة صغيرة.. فكتها فى نفس الوقت الذى
تهاوت فيه على الحصيرة لتجلس.

أخرجت ليمونة واحدة صغيرة صفراء، وثلاثة قرون قفل أخضر،
وتفاحة متوسطة الحجم.

- «وين السكينة، وين خوتك.. هذى تفاحة من عيت بو المالكى..
ذوقة» -

- «وليش عيت بو المالكى يشروا تفاح؟ عندهم فرح، ولا زايهرهم
ملك؟!» -

سألت نواره، تطلعت للتفاحة من تحت رموشها الطويلة الموقد
يهر بين يديها. كانت الأم وابنتها تتحدثان بصوت مرتفع، مرتفع
للافاية، تحت سقف المطبخ الملطخ بالسخام.
- «حزن بعيد عنك، عندهم حزن، ولدهم الكبير، المالكى، غرب
اليوم.

شرا لهم كيلو تفاح قبل ما يفارقهم، عشان يفرح أمه، ويفرح
خوته ويفرح بوه.. وغرب، مشى لليبيا..» -

- «وأى متى يجى؟» -

- «يجى وقت مايجى، امسكى..» -

اعطت ابنتها قطعة من التفاحة ونهضت، فى يدها السكين، وفى
اليد الأخرى بقية الثمرة. اجتازت عتبة الباب تزعق على أطفالها

بأسمائهم- «يا حميدة، معاي تفاحة، يا سالم معاي تفاحة، يا
خويرة معاي...»- تلاشى صوتها.

ملأ هدير الموقد أذنى نواره. تشممت بطن قطعة التفاحة وظهرها.
تأملتها، وعاشت معها فى مكان بعيد، قبل أن تغلق عليها قِدرًا،
وتدسه على آخر رف قرب السقف. كان الدخان يملأ المطبخ،
وزعيق سوارم يهز البيت، الطعام يحترق...!!

(V)

.. وحكايات اشجيليف مخيفة، تبدأ دائماً فى هذا الوقت، عصرا،
والشمس تتحدر جهة المغرب، فيشير بإصبعه لأبو المالكى، وقد
لطخه الزيت الأسود، جهة الأفاق البعيدة، وكأنه يقول- «انظر
.. هناك»..-

ويمسح المساحات الصفراء الواسعة البعيدة بعينه الكابيتين ،
ويلوح بيده أمام وجهه ويصمت!
هكذا إذن تمضى الأيام، سريعا سريعا، عندما تصفو . أما إذا
تكدرت، فتتكاسل، وتبطىء، ولا يدفعها غير دخان التبغ!
«ما عاد هناك خير، يابو المالكى، جذب، والأرض اللى تجيها مطر،
تحتها ألغام، وما عاد هناك ربيع»..-

والربيع الذى يقصده اشجيليف، يعنى اخضرار المراعى والوديان
والسهوب البعيدة، والشعير وقد شقق الأرض المحروثة، وبرزت عاليا
أصفر يبرق تحت الشمس بسنابله الممتلئة الفتية، وأنفاس الأغنام
الدافئة من الشبع، تختلط بعبق الأرض، فتنتشى طيور أم بريمة
والزرزور، وتنفض أجنحتها، فيما تعشش القبرات بين سكك
المحاريث ، بين سيقان الزرع، مطمئنة..

وتمتلئ بطون الحمير، وتعاند الشكيمة، فى ذهابها وأوبتها من البئر
، محملة بالمياه الصافية الباردة، وقد توارت تحت حوافرها

السكك الترايبية، اما نبت عليها من حوذان وقذاح وريحان
وبوعثران.

وحول خيام النجع، تنهق وتجرى، وتتمرغ حتى تتلاقى، فتهدم،
مع المساء، مسترخية فى مرابطها..

ويتجلى القمر فوق غبش المساء، وتنتثر حوله النجوم، فترتفع
أغاني رعاة الأغنام من فوق الروابي، وهم ينحدرون، فيما الوديان
تردد أنينهم الباكي، وضحكاتهم المرحية، فإذا خالطوا النجع،
تمردت الحملان البيضاء، وفرت من بين أيدي النساء، والأطفال،
لتتلاقى ضروع أمهاتها تمتص الحليب بشراهة وهنهنة مسموعة، ومع
ذلك يستخلص النجع حصته من اللبن، فترتفع السنة النيران،
ويفوح دخان الحطب برائحة الرمث والمثتان، ويتوضأ اشجيليف
ليعفر جبينه بالتراب الطيب.

هذه الحياة التي يعرفها وما بعدها... «ما هناك حياة..» -

يؤكد لجاره، بو المالكى ويقضى الساعات والأيام خلف جدار بيته
هذا، يدخل ما تيسر له من لفافات التبغ، ويحسب.. هل يرحل
ليبحث عن عمل فى المحاجر الجديدة جنوبى العامرية، أو يتحمل
أصوات العمال فى محاجر برج العرب، وهم يصيحون به :

- «شايب، ما فيك حيل.. عطلت الشغل وتريد قروش!!»

فإذا لم يذهب لا إلى هنا، ولا إلى هناك، فما العمل؟

ويدرك بو المالكي ضيق صاحبه ، فينسى بجواره علية سجائره
متعمداً ، ويمضى لشاحنته.

ويظل اشجيليف قابعا لا يتحرك فيه غير أصابع يده، تنقل لفافة
التبغ ما بين فمه وركبته البارزة، تصوصو فوق رأسه، من ميزاب
البيت طيور الزرزور، وكأنها محبوسة، وتغرب على الآفاق البعيدة
المخيفة شمس اليوم.

وتتجلل الروابي والسهول الجرداء والبيوت الحجرية بغيش الليل..
تتراجع أصوات الأطفال والنساء، وتداعب النسيمات الباردة وجهه،
وتمسح على يديه تهدده، ويعقبها، دائماً، صوت سوارم - زوجته
، من النافذة.

- «يللا لمرقدك.. قراشك جاهز..» وتهز صمت البيت بأقدامها الثقيلة
متنقلة من دار لدار، فتفزع الطيور فوقه ويسمع بكاء طفل بالداخل
وهي تهدده بالعفاريت، إن لم ينم في الحال، فيزداد البكاء حدة،
ويستيقظ طفل آخر فيسأل عن العفاريت باكيا ثم يرفع الباقون
رؤوسهم من تحت الأغطية، ويتحول البيت وراء ظهر اشجيليف،
لمناحة جماعية تمزق الكبد..

.. وبعد ما تهدأ جدران البيت، وأرضيته، يتطلع اشجيليف للقمر
والنجوم، يغمره الحزن . يتهدد ويمسح وجهه براحة يده ويستغفر
الله.. ويلتفت لمنزل جاره، وشاحنته ، ويصيح :

- «يا بو المالكى.. وين رحت؟ سجايك هنا!» -

- «توا إنجيك..» - ويرسل ولده الكبير، المالكى، ببراد الشاى، والقول السودانى الساخن، حتى يعقبه بعدما يطمئن على محرك الشاحنة، بخطواته الواسعة متهللا. وهونادرا ما يحدث، لاعنا، مع ذلك، الدنيا بما فيها، شادا ذراع ابنه، ليجلسه بجواره..
- «ها، يا شجلوف.. قيش تفكر؟!» -

وأحيانا، يغفو المالكى تحت ذراع أبيه، ويستيقظ بعد ساعة على صوت حطب جاف يتكسر. إنه إشجيليف! يحكى :
«.. هذيك السنة، شنقوا. إسرافيل وأصحابه..!» -

من إسرافيل؟ ومن أصحابه؟ هذا ما لم يعرفه المالكى إلا بعد وقت طويل، وطلب من اشجيليف أن يعيد عليه القصة مرة أخرى عندما التقى به فى ميناء بنغازى.. وجهه ملطخ بالطحين، وجسده يتهاوى على الأرض، حيث أصبح المالكى رجلا، يمد ذراعه ليسندها.. فى هذه الليلة، بعدما نصب القول السودانى، وفرغ براد الشاى، بدأ والده يوبخ اشجيليف وظن المالكى، للوهلة الأولى، أن أباه يشكو لنفسه شقاءه مع شاحنته.

- «غير حياتك يا راجل.. غيرها، وانفض الزفت هذا عن راسك. ما هو عشان روحك، لا، عشان عويلك، بناتك.. لك كم سنة؟ انظر.. عمر بحاله، غربت، شرقت. وايش درت.. لا شىء. قاعد هنا.. تريد

تكمل عمرك قاعد ترجى .. ترجى فيش ١٩٠٠» -

ويواصل بو المالكى، واشجيليف والمالكى ينصتان فى وجل، حتى
تزداد لهجته حدة :

«والدنيا واسعة.. رابط روحك هنا ١٩٠٠! هج... غرب...» -

ويحدث، فى أيام أخرى، أن ينقطع بو المالكى عن زيارة جاره،
وتنقطع سجاجثره، وتبدو شاحنته أمام البيت، بيته، وهو يدور حولها
حائراً، نافذ الصبر، وكأنه ما عرف شجلوف - صاحبه، يوماً،
ولاحكى معه!

ويفر، أيضاً، أولاده من قدام وجهه، تدفعهم أمهم، فينحدرون مع
أطفال الجيران، إلى جانب الوادئ، خلف الرابية، ويقضون النهار
بطوله يلهون على حافة البئر القديمة المهجورة، وفى المساء يتحلق
تلاميذ الكتاب.. المالكى ونواره وسويد وشويقى حول اشجيليف.

«وايش عطاكم الشيخ، اليوم.. ايش كتبتوا وايش حفظتوا؟» -
وكان، كطفل، فى عمرهم، ينطلق يحكى لهم كيف سيصبحون بعد
عشرين سنة :

- «ونا مريض، ياخدونى للدكتورة نواره، تعالجنى» -

فقد جعل نواره طبيبة، كما مد عمره، ربما دون أن يدرك لتسعين
سنة، ليصل، بحسابه هذا، لعيادتها!!

- «.والمالكى، مهندس سيارات! -» يضيف مؤكداً:

- «عشان يصلح عربية بوه...» -

أما شويقي، ولأنه ينعس دائماً، فموظف حكومي محترم، وسويد شيخ يعلم الأولاد، ويبرز لهم أسنانه البيضاء، بدلا من الاسنان الخضراء..
الموجودة الآن في الخص القبلي..

ويضحكون ، ويضحك اشجيليف ويعلو صوته في المساء، ويعلو صوت سوارم من نافذة الدار :

«يللا .. ارقد...» -

لا يلتفت إليها.. ويسرح معهم في عوالم غريبة، قادمة، وربما عاشوها هم بأنفسهم، معه، بطريقتهم الخاصة، وتصوروا، بعقولهم، وخيالاتهم المجنحة، نواره وفي يدها حقنة كبيرة، تخيف بها والدها.. وهو يصرخ ويرفض :

«لا ، ما تعطوني حقنة، ما اريد حقنة.. خلاص .. حرمت ..» -

والمالكي، في ملابس ملطخة بزيوت شاحنة أبيه وشحومها، يصبح وهو ممدد تحت محركها ، زاعقا في أخيه - «المفتاح الكبير.. الكبير خالص...» - وبينما أخوه تائه بين كومة المفاتيح والمفكات والزاديات، يواصل هو صراخه من تحت الشاحنة!

ولم تتضح صورة شويقي موظف الحكومة الناعس.. في أذهانهم ، ومع هذا ظنوا أنه سيصبح شيئا خطيرا أهم منهم جميعا.. له سلطة على الدكتوراة - نواره، والميكانيكي - المالكي ، والضابط -

سويد.. وربما اعتقدوا أنها ستكون إلى جانب ذلك، سلطة ناعسة!
وأخذ سويد يقلد دور ضابط حقيقي، ويأمر - «نويدون... نو كمل...
نو شيب.. إتش دانجرس..»
ونهره اشجيليف- «عطاك الله دعوة تاخذك.. أريدك تكون ضابط
مصرى.. ما نجليزى.. تطردنا .. وتسرق بهايمننا!!»-
وانخرطوا فى ضجة ضاحكة من جديد..
.. اندمش المالكى من نفسه، وهو فى غرفة الحبس وحده، بعد تلك
الليلة بعشر سنوات، وجمع المزق المتناثرة لإشجيليف، أجلسه
أمامه، وبكى عليه بين جدران السجن الصلدة الصماء الباردة!
كان اشجيليف يسأل :
- «نحن ، أولاد على، منين؟»-
ويجيب نفسه!!

(٨)

.. تنهى صوت الحارس من بعيد، واختفى. حل الصمت، وبدأ الليل يخطو فى رحلته الأبدية.. والمالكي ينتظر.. أما طيف وجه إشجيليف، فارتسم على حائط السجن، أمامه، ملطخا بالطحين ، غاضبا..

وبدأ بعقار الشريف، الذى جاء من مكة قبل ستمائة سنة، باحثا عن الربيع، مثله، ويسرح وراء جماله وخيوله وأغنامه ومعيزه، حتى وصل الجبل الأخضر، فبسط سلطانه .. وتزوج وأنجب ثلاثة هم على وحرب وخديجة .. وبعدها، حين جفت الروابي، مات ، فتخاصم أولاده، كل منهم يريد أن يتزعم العائلة، والعائلات المجاورة. لكن عليا كان شاطرا.. تشجع وتقدم، حائزا الوطن، كل وطن فيه ربيع وآبار ، حازه..

وهكذا مرت الأعوام، العائلات كبرت وكثرت، بعدما تزوج على اثنتين، ورزق ولدا واحدا كانت له سنة فى فمه عجيب شكلها، وبعد وفاته بشهر ولدت زوجته الأولى، سعدة الحمراء عليا جديدا وأضافوا على اسمه كلمة الأحمر، نسبة لأمه، لأن الزوجة الثانية سعدة البيضاء ولدت، هى الأخرى، عليا آخر، عقبها بأسابيع وأضيف لاسمه كلمة الأبيض!

هذا كان من زمان.. زمان بعيد.

ومن على الأبيض جاءت قبائل أولاد خروف والعزايم والصناقرة والأفراد..

ومن على الأحمر، قبائل القناشات والعشيبات والكميلات.

ومن أبى سنيّة، الأخ الكبير، جاءت قبائل العراوة والقطيفة، والمحافظ والعجّة.

لكن لا أحد ينسى، يؤكد اشجيايف، ويتساءل، وماذا حدث، أحفاد حرب أصبحوا قبائل، قبائل لا تنسى خصومتها لقبائل أولاد على، فأينما تخضر الأرض، وتكثر المراعى، وتمتلئ الآبار، يتقاتلون، ولم تكن هناك ألغام آنذاك، ولا بارود، كانت السيوف والرماح.

الرجال يتساقطون.. وكذلك الخيول والجمال.. تقطع النساء خدودهن، ولا يصبح الصباح إلا بقتال جديد.

سنوات وراءها سنوات.. حتى سقط عبد المولى الحرابوى - زعيم الحرابى، مقتولا، وجاء بعده ولده - حبيب .. حبيب بن عبد المولى، ليتحالف مع الوالى التركى، وإلى طرابلس، ويقدم له هدية تحدث عنها المشرق والمغرب:

جلد رقبة نعامه مملوءة بالذهب والياقوت والزمرد.. فصادقه الوالى، وساعده بأن جعله قائدا على ستة آلاف جندى. منهم، تسعمائة من الخيالة، بالإضافة لفرسان الحرابى، لينتقموا من أولاد على.. بعد

كل ما مر من أيام وليال.. انطلقوا، وكان حبيب يشير بسيفه..
«عليهم..!» - فترى الفرسان والجنود كالسيل الجارف. أزاحهم من
أمامه، وطاردهم، فهرست أقدام النوق والخيول، الأطفال والحملان
والقدور وكذلك العجائز والمرضى والملوثين بالدم من طعن سيوف
الحرابي ورماحهم.. فلجأ أولاد على الصلح، وباتت السلوم الحد
الفاصل لهم عن قوات حبيب المحموعة هذا خبر قديم، من زمان
يا مالكي.. زمان بعيد.. يا عويل!

ويسرح اشجيليف، وهم يتحلقون حوله، المالكي ونوارة وسويد
وشويقي، فوق الصحاري والروابي، والربيع والجذب، والحمير
والنجوم.. فتصيح سوارم من النافذة - «مرقدك جاهز..» -
- «باهي..» - يجيئها مستطلعا وجوه الأطفال الصغيرة..

ابنته وقد مال رأسها إلى جانب، وعقدت ذراعيها على صدرها،
بينما جسدها ينتفض من البرد، وابن جاره، بعينه الواسعتين
ورأسه الثابت فوق كتفيه بلا حراك، وسويد وقد ارتسمت الدهشة
على وجهه، وشويقي الذي أراح رأسه على جدار البيت، ونام
واستيقظ مذعورا على صوت صاحبة البيت!

والحظة، تخيل المالكي، صوت سوارم خلف قضبان النافذة
الحديدية لغرفة الحبس أمراً - «مرقدك جاهز!» -

(٩)

- «.: وشويقي يا لاوى (٢٦).، فينا.

قطر اطناش (٢٧) اجهزنا له.

وركبنا ، يا اختى، جمالية (٢٨).

وركبنا فيه، ومليان،

موالك (٢٩)، وشتور (٣٠) وقطعان (٣١).

بريق الضوء، شع صباحا، فأقعم قلب المالكى بشذى الأزاهير

وأريجها - كانت طيور بوحوام تحلق أعلى مظلة محطة القطار

الخاوية، تلور دورة كاملة ، تصبح بصوت مخنوق :

- «خراب.. خراب...» -

وربما لهذا السبب أسرع المالكى وألقى بجسده بين عمودين

متقاربين من الخرسانة المسلحة. سد أذنيه ، لكن الصوت ما انقطع

ينخر صدره - «واق .. واق.. خراب .. خراب...» -

هل يعود ؟ لماذا تأخر سويد، وشويقي؟ هذه المحطة لا يوجد بها

إنسان واحد. ربما مهجورة.

قد تكون هناك محطة أخرى، فى مكان ما، لا يعرفه، لاشك انها

الآن تضج بالحركة وصفير القاطرات، يجدان فى البحث عن رأسه

من بين رؤوس المسافرين

عندما تطل نواره ، يتسع أمامه عالم فسيح ، يهب فيه النسيم

الرطب على رؤوس الأقحوان، يمسحها فترتعث تيجانها الصفرة
خفرا!

حينئذ تحوم طيور الزرزور، تحط وتطير على عجل.. بينما
الفراشات الملونة، وأبو دقيق تتنقل من عود ريحان لآخر، بكسل
وفراغ بال!

كانت قضبان السكة الحديد تمتد وتختفى من الجهتين، في
الضباب الأبيض، وأمامه، مباشرة على الجانب الآخر، برز ناظر
المحطة، فجأة، وقد لف حول عنقه منشفة، وكان يقبض على قطعة
صابون بيد، ويحرك سيجارة مشتعلة بين أصابع اليد الأخرى،
وبدا كأنه خرج، لتوه، من حفرة. اجتاز القضبان، وهو نصف نائم
وشعره الطويل مبعثر على حاجبيه وأذنيه. نظر إلى المالكى مرتين،
وكأنه في الأولى لم يره جيدا، قبل أن يختفى في الجانب الآخر،
داخل المبنى.

عندما جاء فصل الربيع هذا العام، لم يشعر به أحد. اخضرت
الأرض اخضراراً باهتاً، وخرجت الورود من شقوق الأرض
المحروثة صغيرة لا تقوى على النهوض. وحالما انطفأت ابتسامة
الروابي والسهوب.

ماتت حبوب الشعير تحت الثرى. خرجت أوراقها الخضراء،
وهففت تحت الريح جذلي، وكان طولها لا يتعدى طول السبابة، قبل

أن تتصلب، وتلفظ أنفاسها الأخيرة!

وأعقبه الصيف، نهض مبكرا (بجبيته الأسمر المحروق - كما يصفه إشجيليف)، ومكث هنا وقتا مديدا. من قبل شهر أيار، وما بعد شهر أيلول. وماتت نعجات بيت بو المالكى. الأولى ماتت وهى تلد، والثانية ماتت لأنها أكلت أكياس (نايلون) والثالثة ماتت فى الليل وحدها!

وطغى الحزن على بو المالكى، يعبر عنه عويل محرك شاحنته، فى الصباح وفى الليل يئن المحرك ويصرخ، بعد صمت وسبات فتهتز الشاحنة برمتها، كأنها تبكى.

هكذا إذن، امتلات بئر إشجيليف المهجورة (وتقع على بعد كيلو متر جنوبى الرابية) بجثث الخراف والماعز. وكل صباح يتحلق الأطفال حول فتحة البئر الشوها، وتشير الأصابع الغضة إلى قعر البئر.

- «هذيك عنزنا...» -

- «والله رايت راس نعجتنا، وفمها مفتوح ولسانها طالع برة...» -

- «هذاك جدى أمى، يا حميدة، انظر هناك، عيونته بيض ورأسه صغير، انظر عشان تصدقنى...»

وعندما جاء الخريف، جاء من الجنوب على غير توقع. شمر أردانه، وأثار بألف ذراع تراب الجنوب الحار، وسفاه على رؤوس الناس، وعلى جدران بيوتهم. وتعطلت شاحنة بو المالكى. أصبحت تحت العجاج كأنها مهملة، هنا، من عشر سنين!

وقضى اشجيليف أيامه بلا عمل. كان يمصغ الخبز الجاف، ويمضغ معه تراب الخريف، ويتحسس ما تبقى من لفافات التبغ، ويلتف حوله الأولاد.. المالكي ونوارة وسويد وشويقي فلا يحكى لهم من حكاياته شيئا، فينصرفون صامتين، واحدا وراء الآخر!

يحدث أن تهمد الريح مرة واحدة، يكون ذلك، غالبا، وقت العصر، فيرسو التراب الناعم الأصفر مشكلا سكا طويلة متعرجة، ملساء وناعمة.

ويطل وجه الصيف مدة يوم أو يومين، بعد ذلك، كأنه لا يريد الرحيل، تستكين الريح وترى دخان قرن سوارم، وهى تخبز عقب النهار، يتحلق فوق رأسها فى سحابة كثيفة ثقيلة، لا تتحرك، أو يجف عرق وجهها الملتهب!

صباح اليوم، انقشع الضباب. مرت ساعتان، والمالكي ينتظر تحت المظلة.

اختفى ناظر المحطة بمنشفتة وشعره المهوش. وظن المالكي، لوهلة، أنه ربما صاح، عندما نظر إليه فى المرة الثانية، وقطعة الصابون فى يده، زاعقا وقد خرج من الحفرة - «خراب.. خراب..» - مثل طيور بوحوام!

كانت المحطة تردد ذات النشيد - فلنكات ملقاة جانبا يأكلها الانتظار. فردة حذاء جندي مغروسة فى الرمل.

جثة كلب منتفخة، وفخذه معلقة في الهواء، كأنه يتبول ، وهو راقد على جنبه! وبعد خمسين خطوة، عربة قطار بلا نوافذ، مفغورة الفم من الأمام، والصدأ يلفها. عجالاتها الحديدية يغطيها التراب. على جانبها كتابة إنجليزية باهتة - MILI.. Y.F.. - ويجوار الباب الأمامي أرقام 50021. B كأنها متخلقة عن الحرب عام ١٩٤٥. قد تكون طائرة ألمانية هوت عليها من السماء. أما وراء ذلك، فالصحراء، بساط أجرد إلى النهاية..

ارتفعت شمس الضحى، وتعلت.
دخل المحطة رجل قصير ينوء بحمل خرج كبير. وراءه ثلاثة أطفال، بنتان وولد، حفاة. جلس فوق الخرج وأنشأ يلف سيجارة ، تحلق حوله أطفاله، وعيونهم على أصابعه البنية.

بعدها، رأى المالكى ثلاثة آخرين، يقطعون رصيف المحطة جيئة وذهابا، ويتحدثون بصوت خفيض، وثيابهم تصدر حفيفا مرييا!!
ثم كثر اللفظ عقب ذلك، عشرات الأرجل والأذرع تتحرك داخل خليط ثياب بيضاء وصفراء وريداء. صدارى سوداء. جرود صوفية. أردية ملونة. عليها، جميعا، مسحة من القدم، والتهتك ، كأنهم يرتنونها، ويقفون بها تحت الشمس، منذ خمس سنوات!

صوت مشروخ كان يصعد من وسط الهمهمة واللفظ، ويحوم فوق الرؤوس - «.. اسمعوا يا ولاد على ... ناعمة الصحرا، عمدتكم ،

حاربت النجليز والجرمان ، والألغام قتلت أيدي، وقطعت يدي،
وخذت معيزي هو كله..

وتوا، عطوني خبزة وسيجارة.. اريد خبزة وسيجارة..» - ويردد
المقاطع ذاتها، بنفس الترتيب، عقب كل نوبة ضحك.

رنت قهقهة شويقي في أذني المالكي. وجده أمامه ، فتلقفه بين يديه.
حالما انضم إليهما سويد. وبدأ المالكي - «كنكم توخرتوا؟» -
وتأخر القطار أيضا. مواعده في الثانية عشرة. جاء بعدها بساعة
«حسبته يجي في الصبح..» -

قال المالكي، وهو يتحسس كفه.. ملمس أصابع نؤارة..
تردد صوت الحذاء الثقيل، يخطو برتابة، على ممر عنبر السجن.
ومن الجردل القذر، داخل زنزانته، تفوح رائحة نتنة.
الجدران تتفصد رطوبة، والليل طويل..

(١٠)

.. بعدما نزح شويقي وسويد للعامة، رفقة أسرتيهما، وأثاثات بيتيهما المتواضعة، والتي لا تزيد عن بعض من البطاطين المهترئة، والأكلمة اليدوية القديمة، المنسوجة من صوف الأغنام، وبعض الأطباق والقدر، بعدها انقطعا عن خص الشيخ، وعن جلسة اشجيليف.

بدأ المالكى، أول الأمر، يقطع الوقت بالسير طوال النهار، من مطلعته، من حافة الوادى والرايبة، فالبئر المهجورة.. ثم السهل الأجرد المنبسط إلى ما لا نهاية.. حتى يهدد التعب، فيعود للبيت بعد غروب الشمس لينام.

وفى الأيام التى يتواجد فيها والده بو المالكى، ويكون رائق البال يصفر ويربت على محرك شاحنته، وعلى كتف ولده الكبير - المالكى ذاته .. ويقول له :

- «خذ شاهى وسودانى، واسبقنى على سيدك اشجيليف..» - عندها ترتجف اوصال المالكى، ويسرع داخل البيت لتجهز أمه الشاى والفلول السودانى.. يستحثها متعجلا، ثم ، بعد هنيهة، وبمجرد جلوسه جوارها، تنطفئ لديه الرغبة فى الذهاب لبيت نواره! وتلح أمه، فيحمل الطبق والفناجين ويراد الشاى، ويضعها أمام اشجيليف ووالده، الذى سبقه إلى هناك، ويتركهما إلى الرايبة.

-«وين ماشى؟» يسأله أبوه.

-«هنا ..» - يجيبه ويمضى.

واشجليف يعلم ما أصاب المالكي، أو هو يعتقد ذلك، لأنه في كل مرة، عندما تحدث مثل هذه الأمور يشير.

-«الولد كبر ..»-

وبو المالكي، الذي كان يرد عليه في السابق بكلمتين - «.. والبنت كبرت..» - أصبح اليوم، إذ رأى نواراً تكبر حقيقة، يكتفى بالصمت، وأحياناً يزيد ب- «هم مم»-

والمالكي ذاته، أدرك، وصدق، بعدما كان يكذب ظنونه، أن نواراً ليست تلك البنت الباكية المطرودة من خص الشيخ كل صباح . فقد ازدادت طولاً، ومرحاً وخفة حركة.. نشيطة، لها وجه مدور لم يعرفه من قبل، وصوت رخيم خافت، لكنه يسمعه من بعيد، فيهز قلبه ويثيره، وعندما تراه هي، لا تستقر يداها ولا خطواتها ترتبك وتفر من أمامه.

كأنها تخافه!

هذا ما أثقل صدر المالكي، وأحزنه ودفعه لاعتزال البيوت لمقعده الحجري على رأس الراية، فيسترد طلبها وصوتها يتهدج منتحبة :
-«عطيني قطعة من فحمتك..»-

ويأخذ يدها ويربها الطريق الخالي من الشوك، إلى خص الشيخ،

بينما سويد وشويقي يقذفان الحصى على الطيور الشاردة،
أمامهما..

وعيناها، عندما صافحتا عينيها، تحت ندى الصباح، وهو في
طريقه لمحطة القطار، وأصابعها بين أصابعه، وجسدها يرتعد أمام
جسده، كانتا هما العينين الواسعتين اللتين تملأهما الدموع
وتبلل قطعة الفحم السوداء في يدها وحينما يتطلع إليهما ، على
جدار غرفة الحبس، يختلط عليه الأمر، ففيهما كمد، وحزن،
وانطفاء..

ثم يكتشف أنهما عينا اشجيليف ذاته -والدها .. كأنه يريد أن
يقول له شيئاً مهماً، ويبدو خلالها أن اشجيليف يعرف سندال كرّة
وربيعة، والمخبرين، والعزبة، وقدر البطاطس، والعمدة الذي يصبح
على محطة القطار.

- «يا ولاد على، نا حاربت النجليز والجرمان.. وتوا ، عطوني خبزة
وسيجارة..» -

وكأنه يعرف، فوق ذلك، مصير سويد وشويقي، والمنيّاوية وبو
الدبوسى - سائق المازدا الصفراء - وشتائم الحرس والضابط المهم
الذى يمر كل شهر على عنابر السجن ويكتفى بـ «اتفوو..» - على
الوجوه البدوية المذعورة!

- «نحن أولاد على، منين؟!» -

يسأل اشجيليف بينما وجهه تغطيه طبقة بيضاء من الطحين والعرق على جدران غرفة الحبس.

ويتعجب المالكي، لإصراره ، وهو يعرف أنه، أى المالكي، من قبيلة الموالك، المرابطين، أصدقاء، قبائل أولاد علي، وحلفائهم فقط، وليس من سلالتهم، إلا أن اشجيليف يصبر، ويجمعه مع أولاد علي، بل ويصهره معهم.. ويخلط دمه بدمائهم.. كما فعلت السيوف والرماح، والبنادق والبارود، وسنوات الجذب والمحول والعطش والترحال، وسنوات الخير والربيع والحملان وجرون الزرع.. أما قبيلة الجميعات، فهي ذرية خديجة، أخت علي الأب، بنت عقار الشريف.

واستقر أولاد علي مع الجميعات شرق السلوم، وغرب الإسكندرية والبحيرة.. وأصبح ربيعهم في هذه الصحراء.. لا يتجاوزونها ، فيها أبارهم وأغنامهم ونجوعهم، وتمر عبرها قوافلهم.. وكان جيرانهم، في البحيرة، من قبيلة الهنادى، وهؤلاء قتلوا جملا لأولاد علي على حدود النوبارية، فنشبت حرب جديدة، أيام الترك، استمرت ، في البداية، ثلاثة أيام بلياليها، فطلب الهنادى من جانب ، وأولاد علي والجميعات من الجانب الآخر، الهدنة لدفن قتلاهم، والتزود بقسط من مياه الشرب، ويقطع من الخبز والقديد، ليشدوا سواعدهم من جديد، وليسقطوا هامات وأطراف بعضهم بعضا..

هذا كان من زمان .. زمان بعيد.. يا مالكى!
هكذا يتردد صوت اشجيليف، قويا، ثم يخفت ويتلاشى، مثل رنة
وتر مشدود على حائط غرفة الحبس.
ثلاثة أشهر، والحرب تاكل الرجال، وتمزق أحشاء النساء، وتشيب
رؤوس الأطفال، انسحب ، بعدها الهنادى لمديرية الشرقية.
وطوال ثلاث سنوات، أيام محمد على باشا، والهنادى يشنون
الغارات ، وأولاد على يصدونهم.. ستة وثلاثون شهرا، والدم يسيل
وكلهم عرب ، يامالكى.. أخوة.. لكن هذا ما صار ، وما حدث!
وفى سنة ١٩١٥م ، فى كانون الثانى، وسماء سيدي برانى ملبدة
بالغيوم، والوديان ريانة بماء المطر، كان اشجيليف يفرز عصاه فى
الأرض، ويخمن إلى أى حد سيكون الربيع غنيا، فيما كلبه يهز ذيله،
وقطيع الأغنام يثير التراب بأظلافه، ويمضغ ويزفر ويهمهم راضيا..
ويحرق اشجيليف فى وجوه الأطفال حوله، المالكى، ونوارة، وسويد
وشويقى، ويضيف..

- «كان المزن أسود. وقلت هذا ما هو مزن مطر.»-

فالسنوسيون كانوا قد احتلوا مدينة مرسى مطروح، ونشروا
زواياهم الدينية فى برانى والنجيلة والشولحى، وحتى واحة سيوة فى
الجنوب.

واشجيليف، وهو يسوق أغنامه بين الوديان والروابي والسهوب

اللانهائية، يسمع الرعاة يتناقلون الأخبار، ويبتعدون عن مواقع الخطر. وعندما تطلع اشجيايف للسماء مرة أخرى، وجدها مسودة مخيفة عرف أن - «السنوسية قطعوا خط سكة حديد مربوط، والنجليز يجهزون لهم في نار حامية...» -

بعد ذلك بشهرين، أي في آذار، نبج كلبه قبلما تدوى مدافع الإنجليز فوق رأسه، فامتطى صهوة جواده دافعا قطيعه وقطيع نجعه، نحو الجنوب.

وكان الرعاة الآخرون، يتعثرون في أغنامهم الكسلى، فيضربونها دافعين مؤخراتها أمامهم بأيديهم وعصيهم. لكن كل ذلك كان بلا جدوى، فالإنجليز، وقد دمروا جنود وحصون السنوسية في منطقة المقتلة ثم في الزويدة، على بعد ١٤ ميلا جنوبى برانى، وجدوا بجوارهم أكثر من ثلاثة آلاف رأس من الأغنام، وأعدادا لا حصر لها من الخيول والجمال الفارة من القصف والعصف، وما يزيد على مائة من الرعاة، حيث أسروهم، على الفور، وصادروا أملاكهم وأملاك أهلهم، وكان الأسير اشجيايف من نصيب مستر فاجنر - أحد ضباط دوق وست منستر، قائد الحملة الإنجليزية على الصحراء الغربية:

وبقيت القوات الأساسية لتأمين المنطقة وزرع حقول السلام بالأغنام، وغرس صف لا نهائى من أنواع مختلفة منها على طول

الهضبة.. من البحر، حتى الجنوب البعيد المتماوج تحت السراب.
ومضى إشجيليف مع القوات الاحتياطية رفقة مستر فاجنر إلى
الشرق. وكانت مهمتها أثناء أوبتها، وإلى جانب مصادرة الجمال
والخيول والأغنام من النجوع والمراعى، والاستيلاء على الدجاج
والحمالان من خن الديوك والحظائر، كانت مهمتها مع ذلك، إجلاء
سكان الصحراء البدو، أبناء القبائل، إلى العامرية والبحيرة
والإسكندرية.

وكان فاجنر، إذ يجد إشجيليف متبرما من خدمته، يؤكد :
- «نوبدون هير.. إتس دانجرس..» ويفريه بتدخين سيجارة..
أما طائر بوحوام، فينشر جناحيه تحت السماء، فى غير أوانه،
ليصبح :

- خرااااب ... خرااااب..»-

(II)

- «وتقول اذبح هالربعية(٣٢).

... ..

قول ذبحناها ، وكلينا،

وشربنا حتى شاهينا.

تمت عشوة فنتازية.»-

دق سيد بوجبيرين ثلاث دقات بقبضته، فاهتز الباب، وكاد ينفتح

وحده.. ألقى نظرة وراءه. المالكى ينفض غبار السفر عن ثوبه.

شويقى يسوى (ضمادته) حول رأسه.

فعاود الطرق - «يا خالتي ربعة.. نا سويد.. سويد بوجبيرين...»-

كانت ربعة تربط الجديان (٣٣)، وحدها، داخل الزريبة، لتحفظ

الحليب فى ضروع العنزات حتى الصباح.

انقطعت أخبار زوجها عنها قبل ثلاث سنوات. ذهب، حينذاك، إلى

السلوم، ولم يعد. ومع أنها سمعت أنباء شتى، تفيد مقتله على

الحدود، لكنها ظلت صلبة وقوية.. بيتها مرتب، تدبر شئونها وحدها

تستقبل الزوار والضيوف، كأن صاحب البيت فى مشوار قريب،

وسيعود حالا..

ودعت الشمس نهارا حارا .

خلفت وراءها بقعا حمراء ولفعت السحب القليلة المتناثرة على
صفحة السماء من جهة الغرب. اسودت هذه السحب بعد قليل ، ولف
الظلام مدينة مرسى مطروح.

- «انشدوا (٣٤) عنه كويس.. فى إمساعد.. فى طبرق.. إن كان
لقيتوه متزوج، قولوا له ربيعة ما تريد لك غير الخير..» -
- «وأى متى غرب؟» -

سألها المالكى.. فتأخرت إجابتها. ران الصمت ، واهتزت ذبالة
المصباح فارتعشت ظلال أجسادهم على الجدران..
دارت الريح تحت النافذة، من الخارج. شموا أنفاسها الباردة
المشبعة بطعم البحر.

ارتفع صوتها الغاضب، وهى تضرب اللعب الفارغة والورق وتهز
مصراع الشباك. تنن وتشهق بعناد متواصل!
ارتجفت أوصال المالكى.
انقبض قلبه، انبسط فجأة.

ثم انقبض مرة أخرى ووجف كائه ينازع.
لم يفكر طيلة اليوم، مذ تحركت به عربة القطار المغبرة العتيقة إلا
فى مدينة مرسى مطروح، كيف تكون.. وهاهو، قد شهد شوارعها
الطويلة المجللة بالسواد ، والتراب.

ركب فيها (الكارثة) . اخترق زحام سوق الخضار، وتوقف عدة مرات أمام واجهات الدكاكين الزجاجية، الكابية، والتي تفيض بالوجد والانتظار، وقد طفحت من الوجوه القانطة للباعة، وهم ينتظرون.. بين المالكى وبين نواره، الرابية، شاحنة أبيه، الآن، ثلاثمائة كيلو متر.

مئات النجوع الراقدة تحت الهضاب السوداء الممتدة جنوبى الخط الأسود لقضبان السكة الحديدية، وعشرات المحطات الكثيرة. أخذ يعيد حساباته من جديد. لماذا وافق على السفر إلى السلوم؟ العمل فى التهريب؟ هل سويد وشويقى هما اللذان اقنعاها؟ ثم ماذا يعرف هو عن السلوم، الهضبة؟ المزروعة بالألغام والحصى الأسود؟

بل ماذا يعرف غير الرابية، ونواره، وشاحنة أبيه.. بو المالكى؟ ربما كان القرار قد تولد وهو بعد يردد وراء الشيخ آيات (أم الحمد) قبل تسع سنين. كان يحدث ذلك صباح كل يوم: ثمة خص يبعد عن الرابية قليلا، يقع على جانب المنحدر من الجهة الأخرى. تخطو أقدامهم الصغيرة، نحوه، يخزها الشوك، تحت أباطهم ألواح خشبية مسودة فى جيوبهم الفحم، لا شىء آخر يحملونه معهم.

كانت نواره طفلة، تمشى وراء الجمع، وتبكى، حافية، أيضا. يظنونها تتألم من الشوك العالق فى قدميها. المالكى يتخلف عنهم، حتى يحاذى جسمها الصغير، ويسألها - «كنك (٣٥)؟» - لا ترد .

تكتم صوتها . تنشج وتنفض . يهز ذراعها - «والنبي كذك؟» -

هنا تبكى بوضوح، بصوت مسموع . هذه إجابتها!

كانوا جميعا يخشون الشيخ . وهى تخشاه بطريقتها الخاصة . لم يشتر لها أحد (جزء عم)

ولم تجد لوحا خشبيا مثل ألواحهم المستطيلة . تحمل معها قطعة خشب مشوهة، وفحمه بللتها الدموع.

للشيخ لهجة غريبة، يصيح . يفتح عينه الوحيدة على اتساعها من فمه يظهر صف من الأسنان الخضراء، وتملا رائحته العطنة الخص الصغير - حجرة الدرس!

- «فين البيض يا سيد، تكذب على؟ امش، إطلع برة..»

لما ديوك أمك تبيض تعال...» -

ويتعثر سويد مجتازا باب الخص، مطرودا . ومن نفس الباب الواطىء، الذى يستقبل مريعا دافئا من شمس الصباح ، تخرج نواره، ودائما، عندما تصل إلى عتبة الباب، تلقى نظرة رجاء ناحية الشيخ، قبلما يمتصها الضوء، يأتى دور المالكى بعدها . - «فين فلوس الشهر اللى فات .. والشهر اللى قبله.. هو أبوك بيشيل حاجات الناس ببلاش؟» -

ويردد الشيخ كلاما كثيرا ، لا يفهم منه المالكى سوى (بقى) و (كده) و (دهوووه)!

يلحقهم شويقي، وآخرون، ممن غضب عليهم الشيخ. لم يحفظ المالكي طوال تلك الشهور غير كلمتين - «عبس وتولى» -

وكان ينسخهما على لوحة بالفحم أمام أبيه فيرضى عنه من تحت جفينة الكليلين.

بهذا انقطعت نواردة عن الذهاب إلى الكتاب. ارتحل سويد وشويقي مع أهليهما إلى مدينة العامرية ربما تولد قرار الرحيل في ذلك الوقت، حيث تفرق الجمع الصغير ودم التراب ما حفرتة أقدامهم العارية في ذهابهم وإيابهم.. ما بين خص الشيخ وبيوتهم.

- «البيوت اللي بنيناها، قاعدة، لكن نحن على ايش نقعدوا .. ما هناك غير الشر...» -

هذا ما كانت تردده أم المالكي عندما تتجمع لديها النسوة، مساء سوارم، وجاراتها القريبات.

ويحدث ذلك عادة عندما يكون بو المالكي، زوجها، في سفر بعيد بشاحنته المريضة، واشجيليف يقطع الحجارة في محجر بالعامرية، وينام هناك، ليعود بعد أسبوع بثمان التبع!

فيتحرر الأطفال، ويثيرون الهرج في أرجاء حوش بو المالكي الغائب، أول الأمر.. ثم يتحلقون حول حكايات النسوة داخل (المربوعة) يلفهم الصمت والنعاس، وخيالاتهم تسرح في الزمان البعيد، الذي تبسطه أم المالكي بصوتها الحالم أمام جاراتها!

نواره أول من يتوسد ركبة أمه، وتنام. فى ليال كهذه، لا ينساها المالكى أبدا.. وجه نواره الطفولى الناعس، رائحة الفول السودانى المحترق، رائحة النعناع.. وصوت أمه - «أفزعوا يا (شتور) افزعوا يا ولاد على.. الجرمان خذوا النعجات، وقتلوا خمسة.. وكنت نا صغيرة.. قد (٣٦) نواره هذى.. نجرى ورا الجديان.. قدام الخيشة.. فى نجع هلنا. قبلى الزويلة من حذا بدانى..» - وتواصل أم المالكى بحماس، فى أول الأمر، ثم برتابة مستمرة، ورتابة موزونة، كأنها تحكى على إيقاع خطوات قافلة إبل!

هكذا.. منذ انقطع عن خص الشيخ، عرف المالكى أمه من جديد. ثمة وحشة.. كل كلمة تقولها، فيها انكسار وفقد.. وصبر لا حد له. ومن بعدها لازم الرابية.. من هناك تمتد الأرض، تغيب الآفاق النائبة.. وكم من يوم مردون أن تبرز رؤوس الفرسان من فوق خيولهم، قادمة من هناك، من حكايات أمه عن أسواق برانى، ونجوع الزويلة وقطعان الضأن والإبل، ومواسم الربيع والحصاد.

من يشعل النار التى انطفأت.. ويبعث الحرارة فى حفر الرماد، موضع القدور. هل سمعت نواره حكايات أمه، وأمها أم أن النعاس كان يغلبها.. ألا يملكها الشوق للنجع، مرابط الخيول، ممراح الإبل، ورمة الخالفة (٣٧) وجابر (٣٨) الخيشة، صوت خض اللبن فى القرية ساعة الضحى، شاي العصر، الحمير فى أويتها من البئر، محملة

بالمياه الباردة الصافية.. هذا الحياة زالت..
ردمها القراب، سفا عليها الخريف بغباره المتطاير ، ولفها تحت
إبطه، ومضى..!

- «.. ونحن مغربين للسلام، تقدر يا سويد توريني الزويدة.. هذا
برانى..» -

كانت ربيعة تعد دورا جديدا من الشاي، سويد وشويقي يتشاوران
فى أمر ما. لذلك نظر كلاهما تجاه المالكى باستغراب :
وسأله سويد - «وايش لك فى الزويدة؟ صحراء خالية، ما فيها غير
العجاج، وألغام بوشويكة..» - لكن المالكى صمت.. وربما ردد لم
يسمعه أحد - «صحرا خالية.. صحيح!» -

فجأة هبت ريح قوية باردة.

صفرت وضربت بشدة. عندما رفع المالكى رأسه من فوق ركبتيه،
وجد حوله جدراناً كثيفة سوداء، والظلام يلفه.. داخل حجرة الحبس.
كان صوت خطوات الحارس يتناهى من بعيد ضعيفاً تحت أنين
الريح الباكى. انفرجت شفتاه بابتسامة. طاف من برج العرب (٣٩)..
من حكايات اشجيليف، إلى مرسى مطروح، إلى حكايات ربيعة،
بينما هو بين جدران محبسه، كل إنسان يحمل معه جناحين، إذا
قيدته، حبسته، طار بهما إلى عوالمه الخاصة، فى أبعد مكان، فى
أقصى زمان..

كان يجلس هكذا، ذراعاه يعصران ساقيه، وفخذه على صدره،
وركبته أمام وجهه، هو وجردل البول.

عندما استقر رأسه الثقيل، مجدداً، فوق ركبتيه، رفعت ربيعه رأسها
- «اسألوا عنه، فى إمساعد، فى طبرق، إن كان لقيتوه متزوج، قولوا
له ربيعة ما تريد لك غير الخير» - صوتها يشبه صوت أمه، تماماً،
ورنة من صدى نواره عندما سألته صباح يوم الرحيل - «أى متى
تجى؟» - رنة فقد.. أو انكسار.. رنة الانتظار.. الصبر الطويل..

ولم يتعب طائر بوحوام، يحلق فوق دار ربيعة، يزعق :

- «خراب.. خراب..» -

وهو يمزق بصياحه المكلوم حكايات ربيعة فى تلك الليلة ..

تصمت هى، حتى يتباعد النذير المشئوم! لتتم حديثها - «بسم الله
العافى الشافى.. ايش طلع بوحوام فى الليل؟» -

هكذا يدور الخيال، يحلق ويحط على دار ربيعة، خالة سويد.. عندما
صاح بوحوام، وهم يجتازون أزقة العزبة فى عقب النهار، بعدما
غادروا القطار والغبار، والوجوه الذابلة.. هو سويد ذاته، من وقف
وظلل على عينيهِ، وتابع طائر بوحوام بجناحيهِ العريضين :

أشار لهم - «يقول: الخريف جا والصيف راح..»

لكن المالكى عارضه - «لا .. يقول خراب .. خراب.. اسمع كويس..

تعرف!» - ووافقه شويقى، بل زاد فوق ذلك بأن عارض مواصلة

الرحيل.. إلى السلوم.. أنشأ يردد - «هذي رحلة شر من أولها» -
وعرض عليهم، وقد توقف قبل أن يصلوا بيت ربيعة بثلاث خطوات ،
أن يعودوا..

وأضاف - «اللى غرب، إما قطعتة الألفام، أو حبسته الحكومة..» -
بيد أن سويد لم يعلق، كان الرعب فى عينيه، فى حركاته المضطربة..
وهو الآن يحدق فى وجه خالته ربيعة..

يتتبع آثار زوجها الغائب.. وهى تروى وتحكى!
ربما، بعد شهر من هذه الليلة، جلست زوجته، وزوجة سويد ذاته،
نقص على صويحيباتها، الآن، بعدما انتهى كل شىء، عن عودته
المنتظرة، عن عودة زوجها سويد ، والهدايا التى سيجلبها معه،
البيت الجديد الذى سيبتنيه، الدكان الذى سيفتحه، فيما هو يرقد
تحت الثرى، جثة ممزقة، مفرومة اللحم، هناك، فى مكان ما، فى
الصحراء، تطلع الشمس على قبره، وتغرب دون أن تبعث فى جسده
المطمور حرارة أو حياة.. إلى الأبد..

فمن لم يخبر ربيعة بمصير رجلها.. سويد بوجبيرين؟!

(١٢)

.. «وحق بريكة بوى وبوك،

وعيت إدمين،

وسيدى حسين،

حديث يطير نوم العين!» -

.. وجمع الانجليز، البدو حول العامرية ومريوط والحمام، بعدما محوا نفوذ السنوسية من الصحراء الغربية، وهدموا كل جدار فى زواياهم الدينية.

وانشأ الميجر براملى - مفتش قسم مريوط آنذاك، مدينة أطلق عليها، وهو ما لم يفهمه اشجيليف أبدا، برج العرب.. ومنها أدار الجنرال مونتجرى العمليات الحربية غرب الإسكندرية عام ١٩٤٢م.

وكانت برج العرب زاوية دينية سنوسية كبيرة، لها مكانة عظيمة بين أبناء القبائل، لأهميتها التجارية ، فتجد حولها مناخ قوافل التمر والزيتون القادمة، وقد لوحتها الشمس، من واحة سيوة، ومناخ قوافل الشعير المريوطى والكروم، القادمة، وقد مسحها يود البحر، من سواحل مرسى مطروح وبرانى والنجيلة.

وازدهرت، هناك، تجارة الأكلمة اليدوية والسجاجيد الصوفية، فقام الميجر براملى، بعد هدم هذا المركز، ببناء منزل له، ضخـم، بنفس الأحجار التى أسقطها من جدران الزوايا السنوسية.

وكان اشجيليف، الذى فقد والده ووالدته وأخوته فى سيدى برانى، ولا يعرف إذا ما كانوا قد هاجروا للبحيرة أو العامرية، أو الضبعة قد أجهده العمل من جديد فى تقطيع الأحجار والبناء، بعدما فر من المستر فاجنر. وانخرط فى العمل لدى المقاول التابع لميجر براملى.

وبراملى هذا، الذى كان عميلاً نشطاً للمخابرات الإنجليزية، لا يتوقف عن الهدم والبناء، والاختفاء، فى الوقت نفسه، فى أماكن غير معروفة، إلى جانب تردد زوار إفرنج على بيته عندما يكون حاضراً.

وعملت معاولة تقطيعاً فى أعمدة المعابد الرومانية واليونانية، واستولى على آثار كنيسة أبومينا القريبة من المنطقة، واقتلع الدرجات الرخامية للمباني القديمة.. وهو ما أعطى لسعد باشا زغلول دافعا لإعلان غضبه صراحة من التصرفات المشبوهة للميجر براملى، فآثر الأخير تقديم استقالته ليعود بعد عدة سنوات، واشجيليف مازال يحوم فى المنطقة بحثاً عن أهله وعن لقمة يتبلغ بها، ومكان ينام فيه، عاد براملى بعد ما تغيرت الوجوه، وجدت الأحوال، وقرر، على الفور، تخصيص برج العرب لتصنيف الأوروبيين الذين توافدوا، بعد ذلك، على المنطقة وشاهدتهم اشجيليف، وعرف الويسكى والسيجار والباب والقبعة وأفخاذ النساء وهى تلمع تحت الشمس!

- «نا كنت نفكر فى هلى.. ونفكر فى اللى قدامى.. ايش يكون؟! -
قرر الميجر براملى، وهو المسئول فى برج العرب، والمشرف، أيضا،
على الصحراء الغربية كلها، حتى أول جندي إيطالى مرابط على
حدود السلوم، قرر منع عودة القبائل التى هاجرت إلى العامرية
والبحيرة والاسكندرية، لنجوعها فى الصحراء.

وجعل زيارة الابن لأبيه لا تكون إلا بتصريح ، يوافق على استخراجها،
أو يرفض ، وأحيانا كان يمزقه بعدما يوقع عليه، لسبب غير معروف!
وشيد حول برج العرب أسوارا وبوابات ضخمة، قاطعا بها الطريق
بين الشرق الأخضر، والغرب الأصفر، وأثناء ذلك، وقع فى قبضة
الانجليز، شاب بدوى اسمه إسرافيل، ومعه اثنان من قبيلتين
مختلفتين، وما سمعه اشجيليف فى سوق العامرية، أنهم ، الثلاثة،
كانوا يصرون على العودة لأهلهم، أما التهمة الرسمية التى علقوا
من رقابهم عليها ، فهى اغتصابهم لامرأة من الأسرة المالكة كانت
فى مصيف الأوروبيين!

ووقف اشجيليف ظهر يوم صيف يشاهد الثلاث خشبات التى نصبت
قبل قليل، بجوار النادى الانجليزى فى العامرية ويتدلى من العارضة
العلوية، ثلاثة حبال ، وحالما تجمع رواد السوق وأصحاب المحال
والغرباء، ومن خلفهم الأطفال والنساء والعجائز..

وصعدت غممة، أعقبها صراخ شق السماء، وبرز الشبان الثلاثة

يلوحون للرؤوس المتزاحمة بأيديهم، ويصفرون لهم، ويسخرون أيضا بطريقة تثير البكاء.

يسقط اشجيليف على الأرض، وأفرغ ما فى بطنه، وفى الليل، ترك الساحة المجاورة للنادى الانجليزى، وكانت الأجساد الثلاثة مازالت تؤرجحها الريح بين العارضات وأخذ يجرى ويجرى.. حتى طلع النهار، نام بين جذور المثنان، والرمث فإذا عاد الليل، جرى وجرى، إلى أن خالط العلمين، ومنها، أخذ حمارا لبراننى. وكان يمر على آثار النجوع، ويقابل الرعاة، ويقضى الليالى، متجها للغرب، يسأل

- «ايش صار وايش طرى؟» -

وماذا وجد فى سيدى برانى؟ أبوه وقد مات وأخوه الكبير مفقود، ولم يعد بعد ذلك أبدا، وأخوته البنات، زوجات فى نجوع أخرى.. أما أمه.. فكانت وحدها، عمياء، تطحن الشعير، والرحى الحجرية تدور تحت رदनّها، وعروق يدها تختلج تحت الوشم الأخضر. الأخبار، هنا، فى برانى، تأتى من الغرب.. الثوار المسلحون يتراجعون أمام قوات الوالى الإيطالى، حاكم برقة - اتيسليو تروتسى - وتمركزوا فى البطنان، ثم أمام جحافل الإيطاليين، أرسلوا ذويهم للسلوم، فاستوطنوا برانى، بجوار أم اشجيليف، واستقر آخرون فى النجيلة ومرسى مطروح، بما فى ذلك أسرة عمر

المختار التي أرسلها مع أسر الثوار، ليتخفّفوا من صراخ النساء وفزع الأطفال.

وفي المقابل، كان البدو - أولاد علي - من صحراء مصر الغربية، ينطلقون على خيولهم تحت الليل، يجتازون كتل الأسلاك الشائكة وخطوط الألغام التي زرعها الإيطاليون، لينضموا لـ «سيدي عمر».. تخرج الكلمات من فم اشجيليف سريعة، ويشير بيديه، خلالها، كأنه يصف ما وقع، أو أنه يحدد المواقع وحجم القادمين والنازحين. وإذا كان المالكي ونوارة وسويد وشويقي، هم المستمعون لحكاياته التي لا تنتهي، يبالغ في وصفها، ويزيد بيديه إشارات وتحديدات شتى، يتصاعد دخان لفاقته فوق رؤوسهم، مضيفا مواقف ساخرة. فيضحكون ويتتешون، وينقلب سويد على جنبه مقهقها مثيرا حفيظة سوارم فتصيح من النافذة على زوجها ليدخل حجرته، أما شويقي، فيفتح عينيه، لحظة، ليضحك، ثم يرخي جفنيه، ولا أحد يعرف أمستيقظ هو، على ذلك، أم نائم!

ويتغير اشجيليف، عندما يسرد لبو المالكي، فيحدد المواقع بالضبط، ويؤكد الأشخاص الذين قتلوا، سواء بأيدي الإنجليز والألمان في صحراء مصر الغربية، أو بأيدي الإيطاليين، في صحراء ليبيا الشرقية.

ويحدث أن يذكر اسم أحد شهداء موقعة وادي ماجد، فيزيد على ذلك

بسؤال جاف لجاره.

- «عرفته؟!» -

وهكذا يمضي الليل، ورأس المبالكي منكس فوق ركبتيه، وحارس
السجن يغنى من آخر الممر الضيق القدر، أغنية باكية..

(١٣)

سندال كرتة، زوج ربيعة، أين اختفى، لا أحد يعلم..
التقته ربيعة، أول ما التقته، عصر نهار خانق، عندما دخل عليها
الخيشة، ليفض بكارتها.. وظنت تلك اللحظة، أنه شرس، مخيف،
كان وجهه أحمر، وأسنانه عريضة وكبيرة وصفراء، وشاربه نافراً
على جانبي فمه، بحدة.

تذكر ربيعة كيف استسلمت له وهو يقترب منها، يلهث، فيما يفتح
فخذيها بعنف، ويمد يده، ومن أول محاولة، أدخل اصبعين،
فانبجس الدم على الجرد (٤٠) الأبيض!

أما في الليل، بعد العشية، فقد داعبها، أول رجل يكشف شعرها،
ويضمها إلى صدره، وبعد الزورة، أي بعد تلك الليلة بأسبوع،
وعقب زيارتهم لبيت أهلها، فتح لها قلبه ومشاريعه وخططه.

- «السنة ما هناك مطر، والسنة اللي عدت، ما هناك مطر.. وبوى
يقول اللي خلقنا يوكلنا، كيف يوكلنا؟

ينزل لنا خبز من السما!»-

عقب وفاة أبيه، وربما مات ياسا من عدم سقوط المطر، باع
سندال كرتة نصيبه من الأغنام، وأخذ ربيعة إلى المدينة.. مرسى

مطروح.

.. «شرينا هالبيت...» - تفرز ربيعة أصبعها فى حصيرة الدار وهى تردد أمامهم مؤكدة..

واشترى فى نفس اليوم حمارا وكارثة (٤١)، وأضيف اسم العربية الى اسمه، سندال، فأصبح جيرانه عندما يسألون عنه يقولون - «وين سندال كرتة؟!» -

كما سور جوار البيت زريبة، وحالما سمع صوت العنزات الثلاث - «ماااا... مااااا...» -

كانت الحياة تجرى على هذه الوتيرة، بما فيها فسحة يوم الخميس.. يصطحب سندال زوجته ربيعة، ويطوف بها، بالكارثة، شارع الكورنيش بطوله.

يربط الحمار فى عامود نور.

ينزل هو وزوجته عبر الصخور والرمل، يجلسان أمام البحر، يستمعان وشوشة الموج!

مساء يوم خميس ، قبل ثلاث سنوات، غاب سندال، تأخر أولا عن موعد الغداء، ثم أنه لم يحضر شاي العصر. وقبل المغرب شارفت ربيعة من أمام منزلها على الطرقات الضيقة المتشعبة إلى داخل شوارع المدينة الواسعة.

أن يعود سندال، لكنه لم يعد!

قبل أذان العشاء بقليل، خبط الباب بعنف، وصاح جار لها :
- «.. سندال مسكته الشرطة، والكارتة والعمار خنوها المخبرين»-
كانت ربيعة ، وظلها يرتجف قبالة ضوء المصباح، تصور لهم كيف
تخيلت الأمر في البداية، وهي تحقق في سويد، ابن اختها، ثم
تصمت، وتطلع لوجه المالكى، تتأكد أن وقع كلمة (الشرطة)
(المخبرين) عليها، وهي وحدها، قبل ثلاث سنوات، فى هذا البيت
وسط عزبة العجاردة الراقدة تحت الظلام، كان وقعا مرعبا عليها..
مرعبا إلى حد أنها شقت ثوبها، تهاوت فى حوش البيت، تبكى
وتبكى، وباب البيت مفتوح، وعيون الجيران تلمع فى الظلام، حولها.
- «يا وليه انتى، تعرفى الراجل ده؟» - داخل مكتب رئيس المباحث..
سألها ضابط حليق يلمع وجهه ورأسه الأصلع تحت مصباح يطن
فى سقف الحجرة الأميرية.. وأشار ناحية الباب الواسع المخيف،
الذى أدخلت منه توا.

عرفت، أولا، الرجال الثلاثة الذين هجموا على بيتها، وأحضرها
هنا.. لأنهم كانوا عمالقة حقيقيين!

أول مرة فى حياتها ترى أجسادا ضخمة، فى آخرها محاجر عيون
ضيقة، لا ترى.. لأنهم، وهم ينفذون أمر هذا الضابط الأصلع
العصبى المنحل ليأتوا بها إلى هنا، اصطدموا بباب بيتها، فحطموه
فى طريقهم. دهسوا وقلبوا، كل صغيرة وكبيرة، رأسا على عقب،

بما فى ذلك قدر البطاطس.. عشاء سندال!
والآن، يسدون باب مكتب رئيس المباحث تقدموا بجلايبهم
الفضفاضة، وحينما توقفوا فجأة، برز من بين أردانهم، رأس
مائل إلى جانب، مبلل بالماء أو بالعرق.

- «سندال..!» - وجرت تجاهه لكن أيدى قوية قبضت على كتفها
وذراعيها مثل كماشات حديدية، فتعلقت فى الهواء للحظة، وهى
تشب نحو زوجها الغائب عن الوعى، ثم تكومت على الأرض،
فشدتها الأيدى وأوقفتها على قدميها من جديد.

حدث كل ذلك فى لحظات، على طول الجملة التى ردها الضابط
الأصلع

- «تستعيطى يا بنت الشرموطة..» -

كان المخبرون والجنود، الذين شلوا حركتها، يقفون خلفها، ولم
تدرك ذلك إلا بعد ما سقطت وسمعت آخر كلمة صاح بها الضابط
الذى أضاف - «ردى على قد السؤال.. تعرفى الراجل ده؟» -

كان المالكى وسويد وشويقى يحدقون فى عضلات وجهها، تنتفض،
تختلج، مع اختلاجات ضوء المصباح، وهى تقص عليهم ما سمعته
عن الأوراق، أوراق إثبات الشخصية.. أوراق عقد الزواج.. أوراق
ملكية البيت.. بيتها هذا.. وكانت، وهى تقبض وتبسط كفيها أمام
وجهها، بتصلب، توضح لهم، بكل ما أوتيت من قدرة، كيف أنها

حاولت أن تشرح للضابط والمخبرين والجنود، أن سندال كرتة، زوجها، بدون أوراق، وأن بيتها هو بيتها، بدون أوراق أيضا..

- «حبسوني، أي والله ، في دويرة (٤٢) معفنة، قفلوا على باب، وعلى سندال باب. انحبسنا يومين.. لا وكل ولا شرب..

جا عمدة، ما نعرف اسمه، وطلعنا بضمانه.. راحت الكارثة وراح الحمار.. صادروهن، ومن ساعتها عرفت أن سندال ما يقعد ، غرب الليبيا، ومن يومها ما جاني منه لا خبر ولا مرسال..

ثلاث سنين، يا خوتي، وحدي..» -

باتوا ليلتهم، وشبح سندال كرتة يحوم في سقف الدار! وقبيل أذان عصر اليوم التالي، كانوا ، سويد والمالكي وشويقي، يتجولون في طرقات مدينة السلوم..

يتسمعون لأخبار الحدود.. من عبر؟ من عاد؟ ومن انفجر تحت قدميه اللغم، ومن أطلق عليه جنود المراقبة الرصاص؟..

الحدود، على بعد ثلاثة كيلو مترات، من هناك، فوق هضبة السلوم.. ثمة الموت.. سيرحب بهم، ويقول - «أهلا وسهلا.. بالضيوف الثلاثة، الجدد..!» -

(١٤)

.....» -

دون السلوم توكبنا (٤٣)
حتى لقريشات (٤٤) شويه
حتى نحن ناس غلابه

.....

وقف سواق العربية (٤٥)
وقف فى قطعة مقطوعة (٤٦)
قال البوابة (٤٧) ممنوعة
من غير بطاقة شخصية

.....

قالوا لى، يا لاوى شاله،
لف انت والمنياوية.

.....

راه الضابط كى يرعيكم (٤٨)
ساع يجيكم بالعربية (٤٩)

.....

من خوفى جينا، يا مناتى (٥٠)

هابه (٥١)، لو ريتى حالاتى

شلت الجزمة وشراباتى

نجرى وسط المنياوية

.....

جيناً للسلوم عشية

للسلوم عشية جينا

من مطروح، أصحاب لقينا

شدوا بالعزمان (٥٢) علينا»-

المنياوى غريب، قادم من ضفاف النيل، ومع ذلك يبدو جافاً،

صامتا، صلباً مثل قضيب من الفولاذ، وملابسه، كما يذكر المالكى

وهو فى محبسه، دائماً بالية، واسعة ومهترئة وبشرة المنياوى،

لونها لون ورقة ذابلة، عطشانة مع أنه قادم من ضفاف النيل!

وهو يعطش.. يجوع، أياماً، ليالى، ولا ينفق آخر قرش يملكه، قد

يصل به إلى ليبيا وهو، كذلك، ينصت إليك، وينفذ ما تأمره به،

حتى إذا اكتشف أنك تخذعه، قتلك.. أو- بالضبط- ذبحك بسكين

حادة.. وهذه السكين يحتفظ بها - مهما جرى - بين طيات ملابسه

الرثة..

عكس البدوى، الذى قد يؤجل الانتقام، حتى تصدأ فى يده

السكين، وتطوى خصمه الأيام!

. الحنين الجارف إلى هففة خصلات نواره، على جبينها، إلى
لمسة يدها الدافئة.. إلى ارتعاشة الشفتين وطرفة العينين، وهي
تطلب منه أن يبقى ليل السجن بارد طويل. هل سيقص عليها كل ما
مر به في هذا العالم الغريب؟

أين هي الآن.. في دار سوارم - أمها - أم فوق الراية، تستشرف
الآفاق..

أين أمه وأبوه، بشاحنته الخربة، الحبيبة، مع ذلك، هل يعلمون أنه
هنا وحده.. بين جدران أربعة وروائح كريهة وشتائم.. ثم صمت
مطبق.. وحذاء الحارس ينقر على الأرض نقرات رتيبة!

نواره، والصباح الباكر، وانتفاضة الزرور، والندى يبلل الأرض
العارية.

ثقل القطار، العربات الحديدية، والعجلات تنن فوق القضبان، في
طريقها إلى المدن البعيدة. شوارع مدينة مرسى مطروح الخاوية،
الليل الكئيب وذكريات ربعة وزوجها الغائب - سندال كرتة!

سائق السيارة، مقال المتسللين، وهو يجمع أوراق النقد من
المنياوية، ومعهم المالكي وسويد وشويقي.

هضبة السلوم، ترتفع، تقطعها الوديان العميقة، حادة الخواف..
وتحتها عند أقدامها الضخمة.. يرقد خليج السلوم.. يمتد أزرق
هادئاً، من هنا إلى ما لانهاية، الليل الخطوات المرتبكة.. تتحسس

طريقها بين رؤوس الألغام.. بين أنياب الكلاب المدربة، بحاسة الشم
القوية!

دوت الرصاصة الأولى، فأريكت الطابور المتسرب بين الألغام
الأرضية المضادة للأفراد..

تعثر الرجال فى عتمة الليل، فاختلط صوت انفجار الألغام، بتكتكة
الرصاص وصياح الجند ونباح الكلاب، وفى الخلف، وراء كل هذا
الصخب المفاجيء تنهات أنات الجرحى وبكاء المصابين ولهات
الفارين.. وهم يتخطون آخر سلك شائك، ليستقبلوا أرواحهم على
الضفة الأخرى من الحدود!

فى غبش الليل، وهم يغذون السير، ويحثون الخطى صوب
أضواء مدينة إمساعد.. أدرك المالكى أنه وحده، ومعه سبعة
مناوية.. فقط.

وكان لابد أن يتوقفوا وينتظروا التسعة الباقين.. سويد وشويقى
والآخرين، لكن ضوء الفجر سلخ الليل عن جدران مدينة إمساعد
أمامهم، وعن خيام حرس الحدود، على الجانبين وأكوام الأسلاك
الشائكة التى تعقد فى أقصى الجنوب مع حد السماء.

لم يأت أحد.. فواصلوا المسير.. للمصير المجهول.. رؤوسهم
منكسة، وخطواتهم تثقلها أقدامهم الدامية..

(١٥)

غاب المالكي عن بيت والده ثلاثة أشهر، لا مرسال ولا خبر..
وأمه، حينما تتحلق حولها النسوة، تخلق لهن القصص عن ابنها
العزيز.. المالكي، وكان جو الليل يساعدها. أما زوجها - بو
المالكي فقد أمضه انتظاره لأول مبلغ يرسله والده ليبعث به الحياة
في محرك شاحنته.. يؤجل كل مشاريعه على أمل.. لم يتحقق!
اشجيليف، والد نواره، جار بوالمالكي، ينتظر بدوره عودة
المالكي، ليحصل على هديته، صندوق تبغ، فيدخن كما ينبغي!
أما سوارم، أم نواره، فرأت خلال الشهر الأول من سفر المالكي،
أنه حالما يعود سالما غانما، ومعه المال الكافي، مهر نواره..
ستتغير رتبة حياتها، وتتغير بعطور ليبيا القواحة!
لمحت بذلك لأم المالكي، لكنها بعد شهر من هذه الخواطر،
عادت وقالت إنها لن تزوج ابنتها - نويرة - إلا بسياق (٥٢) لا يقل عن
عشرة خراف حولية، وكسوة لها ولأسرتها وجيرانها.. وفي كل سهرة
تجتمع سوارم في بيت بوالمالكي، تضع الشرط فوق الشرط أمام
النسوة، حتى قالت دون موارد - «وبأى شيء يرد، اللى يغرب لليبيا؟!
براديو ومسجل، ثوب جديد وبالطو مبطن.. وبعدها، المالكي، وليدك،
الله يجيبه طيب، مازال صغير، وما يقدر على مصاريف بيت بنتي
نواره!» -

بعد اسبوع أضافت سوارم لأم المالكي - «اليوم جانا طلاب (٥٤) لنواره.. بتتى!» -

ونواره، إذ علمت ما يدور حولها أغلقت باب الدار عليها، وانخرطت تبكى.. تستعيد اللحظة والمالكي يستدير تحت الصباح الندى، متجها لمحطة القطار، كأنه يوليها ظهره إلى الأبد.. حينما سألته - «أى متى ترد؟» - لم يجب. فكرت بعد ما بكت حتى جفت فى مقلتيها الدموع، أن تقر من أمها.. سوارم.. فهى الأمرة الناهية فى البيت، ربما بسبب حجمها الضخم، الذى يساوى أربعة أو خمسة أمثال حجم زوجها.. اشجيليف!

لم تر نواره عريسها المرتقب، ما سمعته، فى البداية، أنه من عائلة موسرة، وله دكان فى شارع واسع فى العامرية وعنده سيارة بيضاء مكتوب على بابها (نقل مطروح) وعلى صندوقها، من الخلف، بيت من الشعر - غناوة علم - «إعزاز باعدوا بالدار..» - وعرفت، كذلك، انه كان متزوجا، وأنه طلق زوجته، إذ اكتشف، بعد زواجه بها، أنها لا تعرف كيف تطبخ الأرز الأحمر باللحم الضانى!

كما علمت أنه كان يهوى فتاة فى قرية مجاورة، لكن أولاد عمها رفضوه، وهددوه بالقتل إذا دخل، بسيارته قريرتهم، وقد يكون، لهذا السبب، أنه كتب ما كتبه على صندوق سيارته من الخلف.

اسمه حمودة، لكن الاسم المتداول المعروف به هو فسوكتة، يزيد

عمره على الخامسة والأربعين. مكور ومببط بحيث أن عنقه لا يظهر فيما بين رأسه وكتفيه، ويزفر ويشهق بصوت مسموع، وعندما يجلس إلى مقود سيارته تميل به إلى جانب.. وهذه المعلومات عرفتها نواره بعدما أحضرت أسيرة فسوكتة الكسوة والسياق إلى بيتهم.. حيث عرضتهما سوارم على جميع جيرانها، فيما كانت نواره تعاود البكاء، في دارها، وحدها..

كان اشجيايف، قبل خمس عشرة سنة، الأمر الناهى فى أسرته، وصوت سوارم لا يعلو فوق صوته.. هذا الحال استمر قبلما يبتنى بيته، وقتها.. هو ومحراثه وحماره، وقطيع أغنامه لا يفترقون. وسوارم تلبى كل إشارة من أصبعه، ارتحل بها من وطن إلى وطن.. نزل برانى.. قضى الربيع بأكمله هناك.. حتى وضعت النعاج، واشتدت قوائم الحملان، فسار بها شرقا حيث حرث أرض عيت مجاور، أولاد عمه.. مناصفة، فى رأس الحكمة، على أقطار الشتاء.

طاف الصحراء متفاديا مواقع الألغام، يتقدمه كلبه الأسود الشرس، من موضع إلى موضع، حتى نادت الحكومة بعدما دفن الحلفاء والمحور جنودهم فى العلمين ورحلوا، باستقرار البدو.. فسكن هذا البيت الحجرى، أخذ، من حينه، يستقطع من رؤوس أغنامه، حملا حملا، ونعجة نعجة، كأنه، وهو يعرضها فى السوق، يبيع

قطعا من جسده، فإذا فرغت ، عاش سنوات من الضنك، لا يجد
كسرة خبز يسد بها رمق أولاده فأخذت سوارم، على عاتقها، تدبير
نفقات البيت، دون اتفاق فيما بينهما.

اقنعت أحد الموسرين، بعد أيام من التحايل، بأن تقوم برعاية
معزاته في زريبتها بالأجر ، أصبح من حقها حليب المعزى.. وشهر
بعد شهر سارت بهم الحياة. أفاق اشجيليف على نفسه، فأخذ يلقط
رزقه كيفما اتفق، مرة يعمل في محجر طوب، وأخرى يعمل
حمالاً...

وهكذا.. يوفر ثمن الدخان لنفسه، أما الخبز، فسوارم الله يحفظها
، تتكفل به!

وعندما لا يجد عملاً، أو يصبح غير قادر عليه، يجلس خلف البيت،
تحت النافذة، يلف التبغ في الورق الشفيف، ويدخن ، فيما الأرض
الواسعة تمتد تحت عينيه إلى ما لا نهاية.. جافة.. ما حلة .. منزوعة
البركة!!

(١٦)

وقتما تزوج إشجيليف سوارم، كان قوامها غير القوام، ورقتها غير خشونة اليوم، وخطواتها خفيفة، خفة ريشة! فارعة الطول، حانية، خفيضة الصوت.

ولا تناديه باسمه مباشرة، تأدبا، ولا تتدخل في شئونه الخاصة، كما لم تجرؤ على أن تتفوه أمرة - «مرقدك جاهز..» - كما جرى بعد ذلك.

جمع ما تخلف من أغنام والده، تاركا برانى، يهتز رأسه فوق سنام الجمل، ووالدته، وزوجته، أمامه، فوق حمارين، أما الأغنام، فتتبعهم، إلى جوارهم، يصفها الكلب وينبح طوال الطريق إلى الضبعة.

لم يكن إشجيليف وعائلته الصغيرة وحدهم، يهبطون الوديان، ويرتقون الروابي والهضاب، ناحية الشرق، انضموا للمئات.. للآلاف.. من رؤوس الرجال المتكبرة، ورؤوس النسوة الباكيات، وأقدام الأطفال الحافية، والحمير المحملة بالخيام والخيش وقرب المياه..

تثير حوافر الأغنام والماعز والإبل والخيول، التراب، وهى تحوطهم بالغبار والشغاء المذعور والصبياح، فيما الكلاب تتوقف، بعد كل

مشوار طويل، لتتلفت فيما حولها، وتتبع وكأنها تسأل - « إلى أين ..
هو هو .. إلى أين هو هو .. » - ثم تهز ذيلها وتشم الثرى وتجرى ..
وهناك .. بعيدا عن هذا الجمع البخاب، الرعاة يسوقون ما تبقى من
الأغنام والإبل، وقد عادوا بها من الجنوب .. ويصفرون من بعيد،
مشيرين بعمائمهم، ليحددوا الدروب والمسالك .. ومع هذا لم يكن
ليسمعهم أحد لشدة الضجيج المتلاطم بالغبار والأنفاس الملهثة!
وعندما يذكر اشجيليف سنة الفرار هذه لبو المالكى، وهما يدخلان
تحت نافذة سوارم، ويشريان الشاي، بينما الأولاد يتحلقون حولهم،
يؤكد بو المالكى لنواره - « إيوه .. وعرفت بوك فى هذاك الوقت، يا
نواره .. كنت عطشان، وهو مسك إيدى وصرخ فى وجهى وقال: ما
تشرب .. الأبار كلها فيها سم .. » -

ويندهش الأولاد، ويسأل المالكى والده « فيها سم!! كيف؟! » -
فيصل اشجيليف ما انقطع، ولا يتوقف إلا ليمتص الدخان، مغلفا به
الكلمات وهو ينفثه من أنفه ومن بين شفتيه، على دفعات بيضاء
تتلاشى مع أنفاس الليل الباردة.

والسم، وضعه ما تبقى من جنود الخلفاء العائدين مهزومين من
طبرق، فى جميع الآبار التى مروا بها، حتى العلمين، بعدما أفقدهم
روميل، كما سمع اشجيليف وحفظ، ثمانية وعشرين ألفا، ما بين
أسير وقتيل ومفقود.

وكان الجنرال أو كنتك - قائد جيوش الحلفاء في الشرق الأوسط - يغضب على جنوده الرعاعيد، فيتطايروا شرر غضبه ليطال المعيز والأغنام والكلاب والحمير كذلك، وهي جميعاً تَغْذُّ السير ناحية الشرق ويصدر أوامره بإخلاء الصحراء، ويصرخ، كما كان يصرخ المستر فاجنر.

- « نو بدون .. نو شيب.

نو كامل .. إتش دانجرس...» -

إلا أنه أضاف ، فوق ذلك.

- « أند .. نو ووتر...» -

وعليه سمم الجنود الآبار التي مروا بها، وزادوا فوق ذلك، بزراعة العلمين بالأغنام، بعرض أربعين ميلاً، ما بين البحر شمالاً، وبين المستنقعات الملحية التي لا يمكن عبورها عند منخفض القطارة جنوباً.

وخلف حقل الأغنام الشاسع، الذي لا يحده بصر، وقف الجنرال أو كنتك، فارداً يديه في خصره، كما تفعل سوارم، وصاح - « ستوب... وى ويت فاكن نازى روميل هير...» -

ولم يتوقف المرتحلون البدو عند الضيعة كما كانوا ييغون، بل أخذ الجنود يدفعونهم إلى الشرق بيد، وباليدين الأخرى يسممون الآبار ويزرعون الأرض.. بالأغنام!

وتواصل الفرار، حتى حذود الحمام وبرج العرب - مصيف الأوروبيين -
والعامرية ، للمرة الثانية، ومنهم من أوغل في المسير، هذه المرة،
ولم ينزل عن حماره إلا في كفر الدوار وحوش عيسى.

- «ستوب ..» - كان اشجيليف يقلد الجنرال ويضحك، ووجهه يغطيه
الطحين، وقد سال عليه العرق في خطوط تنحدر من جبينه وتتشعب
على وجهه العجوز، المطبوع على جدار غرفة الحبس، أمام المسجون
المتسلل - المالكى، ثم فجأة يتجههم، تلمع الدموع، وتغطي عينيه،
كأنهما عينا نؤارة.

نعم، هاهى نؤارة.. لكن صوته يعود فجأة مدويا ، فيرفع المالكى
رأسه مرة أخرى.. مازال الليل طويلاً، والبرد ينخر العظام، مثل
الوحدة تماماً!

(١٧)

- وتم م العيشة محتار(٥٥)

وعنده فى البيت وشاشين(٥٦)

وعنده هبودن(٥٧) كاثر

وتم(٥٨) م الوقت يفكر

حسابه(٥٩) فى الكدان كثر

مسك عنه ما عاد يجز(٦٠)

وفلس ويريد سجائر

وما يكسب حتى عنزين

وقاصر عن حق الدخان»-

تقرر زواج نواره من فسوكته قبل موسم الشتاء- الذى هو، فى

الحقيقة امتداد لموسم الخريف- وأصبح لنواره خمسة أسابيع

لتستعد لمراسم الزفاف،

قامت سوارم بإعداد الثياب عند خياطة مجاورة، علفت النعجات

الخمس التى تبقت من السياق، لتنحر اثنتين منها يوم رحيل نواره

لبيت فسوكتة. كانت تخطط للاحتفاظ بالثلاث الباقية، رصيда جديدا

لثروتها!

اشجيليف، وهو يدخن تحت النافذة، خلف بيته، يستمع لنهضة نواره،

ويكائها المكتوم، من داخل حجرتها- وهذا ما دفعه لأن يدخن

بشراهة أكثر، ويستنفد مخزونه بلا حساب.

ظل بحالته هذه، إلى ما قبل يوم الزفاف بأسبوعين اثنين، إذ دخلت عليه سوارم، وهو يجمع حاجياته في خرج.. ثوب .. سروال.. تبغ، ورق لف، زوجته، التي غرزت راحتها في وسطها، وحدقته مليا، في محاولة لاكتشاف ما يريد أن يقوم به، ظلت هكذا، صامتة.. حتى التفت إليها، واضعا خرجه فوق كتفه، قائلا، وقد حسم أمره :
« .. نا مغرب.. ماشى الليبيا .. » -

للحظة، انتاب سوارم ذلك الشعور القديم، تجسست أمامها المهابة القديمة لزوجها، اشجيليف انعقد لسانها. تابعته وهو يجتاز عتبة الدار، ثم وهو يخرج من باب البيت. عقب ذلك، وهو يختفي، في طريقه إلى محطة القطار..

سوارم، التي وقفت مشدوهة، وقد علقت ناظرها على الوجهة التي اختفى عندها، ما لبثت أن تهاوت على عتبة بيتها.

انفجرت في موجة بكاء، اهتز جسدها الضخم، كما لم يهتز من قبل.. تبكى انكسار زوجها.. انكساره الذي لم يلتحم منذ خمسة عشر عاما!

بعد نحو ساعة، كانت سوارم تجفف بموعها. حولها أم المالكي، وأبو المالكي، وأطفالهما بالإضافة إلى عدد من الجيران وأطفالهم. نؤارة وأخوتها استكانوا بجوار أمهم انتابهم الفزع.

تبادل الجمع كلمات المواساة وخففوا عنها بشتى الطرق.
وحالما نصب البراد على النار، وعبقت رائحة الشاي بين جدران
البيت المفجوع ، قالت سوارم،
- «وين يمشى ، وهوكبير، متكسر..» - ثم لاذت بالصمت، مجدداً،
مرت خمسة عشر عاماً، فى رأسها، مثل لحظة.. قضائها اشجيليف
وحيدا تاركاً لها قيادة البيت.. والسلطة المطلقة. تذكرت أنها لم
تتبادل معه، مذ باع آخر نعجة من قطيعه، سوى كلمات قليلة، تعد
على أصابع اليدين!

تأجل زفاف نواره ريثما يعود والدها. دعم التأجيل الجيران وعيت بو
المالكي. رضح فسوكته، فى البداية، للأمر. وما لبث أن أظهر تبرمه،
فإذا ما تطاول على اشجيليف، فى غيبته، ناعتا تصرفه، فى هذا
الوقت بـ «الشايب المكلوب الخارف..» - واجهته نواره بالشتائم
الصريحة - «ايش تريد منى يا متفاخ يا شكوى (٦١) يا برميل
التر؟!» (٦٢) -

على هذا أرسل فسوكتة أمه وعمته، لاستعادة الكسوة والسياق
والذهب. واجهت سوارم هذه المشكلة بالبكاء.

ثم باعت قطعة الأرض التى تقع عليها زريبتها. واستكملها جارها، بو
المالكي، بعض مما فقدته، أو باعته، وأصبحت تقول بملء الفم -
«إيوه.. رديت لهم كل شىء.. على داير مليم اصفر، وما خذنا منهم

غير قلة القيمة..»

عادت نواره لملايسها القديمة.

كما أصبحت ، مع مشرق شمس كل يوم جديد، تقف فوق الراية،
تستشرف الآفاق، فقد يظهر ، من هنالك، أبوها اشجيليف، أو
جارها، المالكى الذى طال غيابه..

(١٨)

- «زمان شين

زمان عجائب

زمان ما معقب شى

ياما جايب.

فيه العويل يدبروا ع الشايب (٦٣)

وان دبر يقولوا رياك (٦٤)

ما نفعلنا!

وهو كان فى عصره يرد العايب.

يجيب الفخر، فارس شهير معنى.

يا ما قنا (٦٥) م الى عراض جنايب (٦٦)

فى دير عافنى (٦٧) فيه ما تمنى

ويوم ظمياها (٦٨) تحدر (٦٩) تقول كتايب (٧٠)

وضنت (٧١) عليه

وقال طيبك ضنة

فيده (٧٢) قراز (٧٣) خرزه (٧٤) شايب خايب (٧٥)

ورشا (٧٦) جديد،

يا مقوى الى افئلنه (٧٧)

ومنهن يغزر ف ما ستين جدايب (٧٨)

يردن (٧٩) عليه أفواج ما انزحنته (٨٠) !
واليوم ..

راحوا وين نزالة الجطية (٨١)
والعيشبة الهنية

ووين البير والجمل والحوية (٨٢)
اليوم مرتكن ع الجنب،
ماله نايب (٨٣)

كى عاكسن الأيام، ما ارحمنه،
زمان شين! -

الجدران .. طنين الصمت .. طول الليل.
هنا، ضم المالكى جسده المرتعص ،
وانكمش، برد ، وحدة، يأس .. دؤم الرأس موجوعا ، طوف فى عوالم
بعيدة ..

رحل، من جديد، إلى الربوع .. الآفاق الرحبية!
بهذه الطريقة، وحدها، تسهوا تتحرر بخيالك.
لايبيت السجن سجننا، فتنطلق إلى حيث تشاء!
فى ميناء بنغازى كان أولاد على .. قناشات، صنقر، أقراد ،
عشبات (٨٤)
.. وغيرهم مع المنياوية

ترسو سفن الطحين جوار رصيف الميناء، عشرات الأكتاف،
والرؤوس المنكسة تتن تحت ثقل الأجولة المدكوكة.. إلى الشاحنة..
عبر السقالة الزلقة المائلة..

لا يتبين وجه المالكى، بعد الظهر، من وجوه رفاقه الملطخة
بالطحين الأبيض.. وقد شكل العرق خطوطا غريبة على الجباه
والخدود الغائرة..

هدير الناقلات.. صفير السفن، زعيق الحمالين.. صخب يصم
الأذان، ربما اضطر اشجيليف للاقتراب أكثر، من هذا الوجه الخارج
لتوه من تحت مياه الصنبور، ويعاود السؤال بصوته المتهدج
المتعب - «يا وليدى، أنت هو المالكى، ولد بو المالكى.. فى
مطروح.. برج العرب.. انت هو جارنا.. هه؟!» - وهزه بيده، فالتفت
المالكى للوجه الطحيتى المرعب : أنت ، من هو ؟
« الله يخرّب بيتك انا اشجيليف.. جارك» -

سعل، تهاوى منهكا.. على الأرض الوحلة - «اشجيليف.. صاحب بيت
عمتى سوارم؟!» -

وحمله المالكى. أجلسه على طاولة واطئة.. غسل وجهه، واشعل له
سيجارة. كان اشجيليف يمتص الدخان بشراهة، ويبكى بشهيق
منسفوع، بدموع كبيرة ظاهرة، تدرجت على خديه واستقرت على
جانبى شاربه الأشيب.

فى الليل، حول ضوء الشموع، تحلق المالكى واشجيليف وسكان
البرائة (٨٥) على براد الشاى.

كان اشجيليف قد قال كل شىء، بما فى ذلك ما يتعلق بفسوكة! لا يعرف المالكى، حتى الآن، الدافع الذى يذكره بجلسته فى بيت ربيعة، كلما طافت بمخيلته هذه الليلة.. فى البرائة المجاورة للميناء، ربما الضوء الخافت.. الحزن أو الفقد. فقد قص لهم كيف انتهى سويد، وشويقى. بات اشجيليف يدخن ويستمتع للمالكى.. يحدق فى الظلام، وينفث الدخان، والمالكى ينبش بأصابعه خيوط الفراش الرث الممزق.. وبعد صمت طويل قال- «نحن مالنا مقعد هنا.. من بكرة نشرقوا لهننا..»- وربت على ركبة اشجيليف، وازدحم رأسه بالرابية.. نواره.. شاحنة أبيه.. وزوجة سويد - الأرملة، وأم شويقى - الثكلى!

استيقظ المالكى ، وحده ، فجرا. مشى للخلاء، مفكرا فى طول الطريق الذى سيقطعه، ليصل إلى الاسلاك الشائكة، وحقل الألغام، يعبرهما لوطنه الحبيب. صفحة السماء مخضبة بالحناء..

مزق السحب الداكنة مبعثرة بامتداد الأفق، برزت الشمس، من تحتها ، واستدارت قرصا برتقاليا. عاد المالكى لـ (البرائة) وخلفها تجلت معالم الميناء، وبدأت تدب

فيها الحركة، بل تنأى، إلى هنا، بداية صخب يوم جديد.. كانت الشاحنات تصطف وتقرقع وتهدر.

طيور النورس البيضاء حلقت حول رؤوس البواخر السامقة، واختفت، ثم ظهرت هناك.. بطول الساحل ورصيف الميناء، ملأ الحمالون (البراكة) برائحة التبغ والخبز المحمص وعبق الشاي، اشجيليف لم يستيقظ بعد، ولم يستيقظ، بعد ذلك، أبدا.. كان ممدداً على ظهره، وفوقه ملاءة صفراء مهترئة، ومن جانب ترى شيب شعره، خلف الأذن تماماً، وقد عقد ذراعيه على صدره، مات وهو نائم، ربما بسبب انسداد رئتيه بدخان التبغ - طوال خمسة عشر عاماً - ، وغبار الطحين ، ربما ..!

- «لن أعود.. بما أعود.. خمسة وأربعون ديناراً، وخبر شؤم.. أخبار شؤم؟! - دفن المالكى وسكان (البراكة) اشجيليف فى مقبرة مجاورة، قديمة، مهملة، ولا يزورها أحدا

فى اليوم التالى جاءت رسالة من والده - «.. العربية خاربة وما عندنا ايش ناكلوا.. ابعت قروش، اليوم قبل بكرة..» -

(١٩)

.. « .. فى البوابة كى (٨٦) وصلنا

طلع المسدس نزلنا

بكفوفة حلوات عدلنا (٨٧)

.....

قال أنستونا بالجيه

قال أنستونا بجيتكم

ستبقى سودا ليلتكم

ايش الى ذاهب شيرتكم (٨٨)

نين جيتوا فى هالعربيه..» -

بو الدبوسى رجل قصير نحيف وجهه مكسو بالشعر، من فوق جبينه

تبرز خصلات نافرة مثل لمة سنابل جافة. لا يضحك لا يهزل، ومن

يحاول معه، يلكمه أو يلقي فى وجهه بأى شىء يجده بين يديه، حتى

لو كان إطار سيارته الاحتياطى!

سيارة بو الدبوسى، ماركة (مازدا) صفراء، واطئة تزحف على

الأرض لها صندوق، بدون لوحات معدنية وضع المالكى يده على

جانبيها وقال - « سمعت إنك مشرق.. للسلوم..» -

- «إيوه...» - رد بو الدبوسى غاضبا بلا سبب، وأضاف - «معاك بضاعة؟» -

- « لا .. بطولى (٨٩) » - أجابه المالكى وأردف - «تأخذكم؟» -
- « ايش تدفع؟ » -

- « ما نقدر عليه.. خمسطاشر... » -

- «خمسطاشر ايش .. مصرى ولا ليبى .. » -

- « بالمصرى... » - قال المالكى وتراجع، نهض بو الدبوسى حائقا - «

من أى اخوتنا؟» - سأل من تحت أسنانه، ركب سيارته، أدار محركها .. مال عليه المالكى وأجاب:

- « مالكى .. من الذراع (٩٠) .. البرج .. برج العرب .. وبوى سواق على عربية نقل ... و ... » -

- « اركب .. تدفع خمسة وعشرين مصرى، والباقى سموح ، عشان خاطر الموالك وعرب الذراع، والبرج، ومطروح، وأولاد على .. » -

طاقت (المازدا) شوارع بنغازى الخلفية، انطلقت بعدها نحو مدينة طبرق، فى صندوقها أجولة طحين، صناديق شاي، صنادل جلدية، ثلاثة جراكن مياه، ثلاثة أخرى من البنزين الفواح!

زقزقت طيور الفجر خلال الأشجار المجاورة لمبنى السجن ، برد السحر نخر العظام، الغرفة ضيقة، عطنة، جدرانها صماء، قرقع صوت أقفال وسلاسل، تأوه رجل، سعل حارس ليلى، زعق آخر

برخاوة - « يالله.. نظافة..» - ابتعد. اختلطت همهمات مضطربة.
جلجل أمر آخر، وهو يضرب الفناء بحذائه الثقيل - « نظافة..
العنابر.. بعدها حوش السجن، وكمان المجارى، طفحت ، كلها،
امبارح!» -

وبجوار غرفة حبس المالكى، صوت آخر مشروخ - «قوم يا ابن
الجريانة.. لسه نايماً؟» -

ومن نهاية العنبر تلاشت الشتائم القذرة - « انت فاكر نفسك على
سرير أمك ياله..» -

كم ود المالكى لو طال الليل ببرده ووحشته.. يبقى « وحده، فيطلق
العنان، جسد خدره زمهرير الليل، نور البكور يتسلل عبر القضبان
الحديدية. لو يستكمل رحلته مع بو الديوسى وهو يحكى حياته
بفراغ صبر كأن سيرته شىء كريحه، مثلاً، عندما احترق رعى أغنام
نجم أهله جنوبى برانى، قال ذلك بقرف - «وبعدا كبرت.. ومشيت
للسوق.. قبض على العسكر.. وحبسونى تعرف.. يريدوا شهادة
ميلاد، بطاقة شخصية، موقف من التجنيد..» - وضحك، رغم ذلك،
وضرب مقود (المازدا) بيده المغطاة بالشعر، وأردف - «هربت منهم..
غافلت الحارس وجريت يوم وليتين.. أي والله يا مالكى.. وما قدر
مخلوق يعرف وين طريقى.. من أين نجيب لهم أوراق.. أنظر، ويقول
لى الضابط : أنت مصرى ولا ليبى.. يا ابن الشرموطة!» -

هرب بو الدبوسى لليبييا، عمل راعيا للغنم لدى موسى فى البردى، لا يعلم المالكى كيف انتقل بعدها لقيادة (المازدا) الصفراء، وتهريب السلع عبر الحدود، لم يسأله، كان ليل، خوف.. أمام أسلاك شائكة وحقل ألغام ، أضواء السيارة مطفأة، الصحراء تتراجع تحت عجلاتها، تقذف الحصى والنباتات الجافة، بقهر، وراءها.

عندما كشفتهم دائرية الحدود، وطاردتهم، أخذ بو الدبوسى يغنى، دعس البنزين وجهها صوب الجنوب، رأسه يتأرجح ، يضرب سقفها ومقودها ويغنى وهى تتن تنسابق الريح وأزير الرصاص بكل ما وضعت فيها من قوة، أخيرا صاح - «توهناهم .. راحوا .. توا نترىحوا ..» - وزود السيارة بجركن بنزين، غسل وجهه.

تمدد على الأرض، وضع أذنه عليها، وتنصت.. «نحن، توا، فى أمان..» - بعد قليل ركب السيارة، أدار مفتاح المحرك.. لكن (المازدا) الصفراء ردت بالصمت ربت عليها، استعطفها. المحرك توقف، تسلل البرد داخله، ومات.

ضج عنبر السجن، اقتربت خطوات من غرفة حبس المالكى، أن أوان العمل ، كسح المجارى فى فناء السجن، لو يبقى وحده.. نصف ساعة أخرى.. ليسترجع الليل.. بالضبط ، الفجر.. يسير خلف بو الدبوسى، يحمل كل منهما جركن مياه، يتقله من يد ليد، تحت شمس الصحراء، فى الضحى والظهر والعصر، وأول الليل..

أن يظهر السلك الشائك .. الحدود .. لا شيء.

هدهما التعب، فى اليوم التالى، وهما يتبادلان حمل جركن واحد ويتبادلان معه الشنائم!

ثالث يوم، نفذت المياه. تقرحت الأرجل. إصرار على مواصلة المشى، تحت نجوم النهار ونجوم الليل!

آخر مرة، رأى فيها المالكى صاحبه بو الدبوسى، يزحف نحو السلك، يبسه العطش والجوع، ثم ، مثل انخطاف البرق، نوى انفجار.

طار التراب والحصى وأشلاء بو الدبوسى.

لم يتذكر المالكى جميع التفاصيل.

فُتِحَ باب. سلمه الحارس أدوات لكسح طفح المجارى. أجل كل التفاصيل لليلة التالية.

كل ما يتعلق بوالده، أمه، أخوته، واشجيليف وسوارم وربيعة، وسويد وشويقى. وفى الأعماق ظلت نواره بوجهها البريء الطيب، وابتسامتها الحزينة الساخرة!

هوامش:

- (١) الهضبة
- (٢) كثيرون
- (٣) صدريه سوداء فى الغالب تلبس فوق الثوب الابيض
- (٤) حطة حمراء توضع على الرأس خاصة بالرجال البدو
- (٥) عمود وسط الخيمة لرفعها لأعلى
- (٦) منطقة العلمين غرب الإسكندرية بحوالى ١٣٠ كيلومتراً
- (٧) البدو
- (٨) لا
- (٩) جمل
- (١٠) أغنام
- (١١) المخيم
- (١٢) الزوج
- (١٣) الزوج
- (١٤) الحال ليس على ما يرام
- (١٥) خجل
- (١٦) أى اتخذنا رأياً وسرنا عليه
- (١٧) أنا ورفاقى
- (١٨) بأى شىء مسكت، أى: ماذا وجد معك حرس الحدود عندما ألقوا القبض عليك؟
- (١٩) من قبيلة السمالوس
- (٢٠) من قبيلة القطعان
- (٢١) من قبيلة المعايدة
- (٢٢) من قبيلة الحبون
- (٢٣) أنتتظرينى؟
- (٢٤) حتى الموت

- (٢٥) تبحث عنك
- (٢٦) لاوى: صفة للفتاة التى (تلوى) شالها حول عنقها أو على كتفها كإشارة للحبيبة بعيدة الديار
- (٢٧) قطار الساعة الثانية عشرة
- (٢٨) جماعات
- (٢٩) (٣٠) (٣١) أسماء قبائل
- (٣٢) المعزة الصغيرة
- (٣٣) الرضيع من صغار الماعز
- (٣٤) اسألوا
- (٣٥) ماذا بك
- (٣٦) فى عمر نورة
- (٣٧) مؤخرة الخيمة البدوية. والرمة: الحبل الذى يشدها بالوتد.
- (٣٨) عمود وسط الخيمة لرفعها لأعلى
- (٣٩) مدينة غرب الاسكندرية مباشرة
- (٤٠) رداء أبيض ينسج يدويا من الصوف ويرتديه الرجال البدو
- (٤١) عربة خشبية تسير على إطارين ويجرها حمار لنقل الركاب داخل المدينة
- (٤٢) تصغير لكلمة دار
- (٤٣) قبل السلوم بقليل حلت بنا كارثة
- (٤٤) القروش
- (٤٥) السيارة
- (٤٦) فى منطقة مهجورة
- (٤٧) بوابة حدودية
- (٤٨) إذا الضابط رآكم
- (٤٩) سيأتيكم بالسيارة
- (٥٠) يا منأى: يا حبيبتى
- (٥١) يا للهول
- (٥٢) العزومة
- (٥٣) ذبائح تتحر عند الموافقة على طلب يد العروس
- (٥٤) أسرة تأتي لطلب يد العروس لابنهم.

- (٥٥) أصبح من عجزه عن تدبير نفقات المعيشة محتاراً
- (٥٦) الأطفال الصغار الكثيرون
- (٥٨) أصبح
- (٥٩) أى، حساب ديونه
- (٦٠) يبيع السلع بالأجل
- (٦١) القرية لخض اللبن
- (٦٢) الخراء
- (٦٣) الرجل المسمن
- (٦٤) أراؤك
- (٦٥) امثلك
- (٦٦) الإبل
- (٦٧) رابية يكثر عليها العشب
- (٦٨) يوم عطش الإبل
- (٦٩) تهبط المنحدر
- (٧٠) مثل كتائب الجيش
- (٧١) ضنّنت: اتجهت والتفت حوله ليرويها
- (٧٢) فى يده
- (٧٣) دلو من جلد الخراف أو الماعز
- (٧٤) صنعه
- (٧٥) رجل كبير السن صنع دلوأ كبيراً لسوء تقديره
- (٧٦) الرشاش: حبل الدلو
- (٧٧) أى قتلته نسوة قويات
- (٧٨) دلالة على كثرة الماء أى ليست سنوات جدد
- (٧٩) يردن البئر
- (٨٠) أى أن أفواج الإبل لم تنزح ماء البئر لغزارته
- (٨١) الدالة الخطية: الرعاة الرجل
- (٨٢) الحوية: الخيمة البدوية المصنوعة من صوف الأغنام وشعر الماعز
- (٨٣) أى أن هذا الرجل الذى كان يمتلك إبلا لا حد لها ، أصبح (مركوناً) بلا مال ولا أحد يستمع لرأيه أو يعمل به

- (٨٤) من قبيلة العشيبات
- (٨٥) خص متنقل لسكن العمال الغرباء
- (٨٦) كي : عندما
- (٨٧) صفعنا على وجوهنا حتى اعتدلنا واقفين
- (٨٨) ماذا غيب عقولكم ؟ لتأتوا في هذه السيارة - المقصود سيارة الشرطة الحدودية
- (٨٩) أى وحدى
- (٩٠) منطقة سكنية غرب الاسكندرية قرب مدينة برج العرب.

فى الأعداد القادمة

- ١- آخر حكايات سهرانه فى قلبى - عبده الزراع
- ٢- حكاية بكاء النيل - أحمد صلاح كامل
- ٣- الألوان ترتعد بشراة - شريف الشافعى
- ٤- أيام فى الأعظمية - فريد معوض
- ٥- المملوك - محمد عبد الناصر أبوزيد

رقم الإيداع : ٩٩/٣٩٣١

شركة الأمل للطباعة والنشر

ليلة في سجن المالكي
عبد الستار حنينة

عندما اختارت لجنة التحكيم في
مسابقات هيئة قصور الثقافة، هذه الرواية
الفوز بالجائزة الأولى فلأنها تستحق
الجائزة بالفعل لعدة اعتبارات، أهمها البيئة
التي تجرى فيها أحداث الرواية، فهي بيئة
مصرية، ولكنها تتسم بخصائص مغايرة في
العادات والتقاليد وسلوكيات الحياة اليومية.
حتى اللهجة المحلية التي انطق بها الفنان
شخصيات روايته أضافت إلى هذه المغايرة
بما يثرى الرواية المصرية - والعربية
بعامة.

Bibliotheca Alexandrina



0422615



شركة

الثلث ٢ جنيه